أيام العرس

العدد الثالث

الطبعة الأولى
1446 هـ
2025 م

اسم الكتاب: أيام العرس
التأليف: صفاء الجابري - أسماء الريس - سامية أحمد - نزهة النميلي
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 148 صفحة
عدد الملازم: 9.25 ملزمة
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2024/3412
الترقيم الدولي: 978-977-6697-997

محفوظة جميع الحقوق

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الناشر.

حكايا للنشر والتوزيع

hakayaproduction@gmail.com
01551751909 _ 01096476744

سلسلة: نداء من الأندلس

رواية

أيام العرس

العدد الثالث

صفاء الجابري
أسماء الريس
سامية أحمد
نزهة النميلي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فوجئ السهم الفتى ذو الخامسة عشر من عمره بمطاردة غريبة تهدد حياته تنقذه جدته التي كانت تحرص على إخفائه طيلة خمسة عشرة عامًا وتجهزه للمهمة التي تنتظره، ولكن في اللحظات الأخيرة تصاب بطلق ناري فتطلب منه أن يكمل الطريق ويتركها وعليه أن يتذكر كل ما لقنته إياه.

بعد أن يحل معادلة عبقرية ينتقل الزمن بالسهم إلى عصر عبد الرحمن الداخل وهناك يلتقي بالشاب طارق لاعب الخماسي الحديث الذي كان في رحلة من المغرب إلى إسبانيا للتجنيس واللعب باسم إسبانيا بعد أن تعرض لمضايقات في وطنه، وفي أثناء رحلة الهجرة السرية يتفاجأ أن الزمن قد عاد به إلى عصر عبد الرحمن الداخل، وكان عليهما أن ينفذا المهمة المطلوبة منهما لكي يستطيعا العودة إلى زمنهم، بالضافة للبحث عن فتاة اسمها مريم من نفس زمن طارق، وإقناعها بالعودة معهما، في الوقت الذي تسعى فيه مريم لتغيير أحداث التاريخ[1].

ينتقل الأبطال الثلاثة إلى زمن طارق بن زياد وعليهم تنفيذ المهمة الجديدة وإنقاذ خطة العبور الكبير لكن مريم التي لا تزال تحت تأثير

(1) العدد الأول الميقاتة.

المنظمة التي تدفعها لتنفيذ خطتها تهرب منهما من جديد، لكن السهم وطارق ينجحان في استعادة مريم وتنفيذ مهمتهم.

وفي نفس الوقت استطاع العالم عبد الله إنقاذ ميسان جدة السهم من منظمة البقعة الحمراء التي كانت تطاردها في اللحظة الأخيرة، ونقلها إلى مقره السري داخل غواصة تجوب البحر المتوسط، مستخدمًا تكنولوجيا حديثة يتابعا من خلالها انتقال الثلاثي طارق ومريم والسهم، ولكن مريم تصاب بمرض غريب يوشك أن يفتك بها، ولأن طارق والسهم يدركان أن نجاتها مرتبطة بنجاة مريم للوصول إلى خط النهاية والإفلات من سيطرة المنظمة، يصارعان الزمن لإنقاذها فهل ستنجو مريم أم تستسلم للموت؟[1].

(1) العدد الثاني العبور الكبير.

قرطبة 230 هـ

في أحد بيوت مدينة قرطبة القريبة من الغابة جمع فتى في التاسعة من عمره كتبه على عجالة داخل حقيبته القماشية قبل أن يعلقها في رقبته ويخرج إلى صحن دارهم قائلًا:

- سأذهب يا أمي.

انزعجت الأم قائلة:

- إلى أين يا سالم؟ سأكمل إعداد الطعام انتظر لتأكل.

- لا يا أمي سأتأخر عن درسي.

- لن تتأخر إن شاء الله أخبر معلمك أني قد حبستك قليلًا.

- لا يا أمي سيدي شمس الدين لن يقبل بتأخير أنت تعلمين أن هذه دروس خاصة بي ولا أريد أن يحرمني منها.

مسحت الأم على رأس صغيرها بحنو قائلة:

- كم أتمنى أن تصبح قائدًا فذًّا كسيدي عبد الرحمن بن الحكم وتنشر العدل والسلامة والخير في كل ربوع الأندلس.

اندفع الفتى يقول:

- بارك الله في مولانا يا أمي ولكني أريد أن أصبح عالمًا كسيدي شمس الدين.

ضحكت الأم ثم قالت: «لا بأس يا فتى لا بأس بارك الله فيك أسأل الله أن ينبتك نباتًا حسنًا وأن يرزقك علمًا نافعًا».

أعطته لفافة صغيرة يأكلها في الطريق وانطلق سالم بن المنذر إلى بيت العالم شمس الدين الأندلسي عالم الهندسة الشهير؛ دق الباب ففتح له الخادم دخل قاصدًا مجلس سيده وهو يلهث؛ كان شمس الدين منكبًّا على أحد المراجع يبحث فيها فاقترب منه ودون أن يحدث صوتًا، اتخذ مكانًا إلى جواره وظل يراقبه صامتًا، وعندما انتهى من رسوماته الدقيقة لفها بحرص وانطلق بها إلى غرفته التي يحرص منذ أسابيع طويلة على عدم اقتراب أحد من تلامذته منها، ولكن سالم لمح من خلف الباب المفتوح نصفه معلمه شمس الدين وهو يضع أوراقه في صندوق خاص ويكتب عليه من الخارج كلمات لم يتبينها الفتى، وعندما عاد شمس الدين جلس على كرسيه فبادره سالم قائلًا:

- ألن تأذن لي يا سيدي بدخول غرفتك تلك كما السابق؟

ابتسم شمس الدين ثم قال حانيًا:

– فيما بعد يا سالم، فيما بعد.

بدا لسالم أنه سيصمت ولكنه أكمل لكي لا يكسر خاطر الصغير:

– هذه أوراق هامة طلبها مولاي عبد الرحمن بنفسه، وسوف يتم تسليمها في الصباح إن شاء الله.

لم يكتف سالم بتلك الجابة فاندفع يقول:

– وما المرسوم بها؟ أظن أنه منجنيق لقد لمحت جزءًا منه.

ضحك شمس الدين هذه المرة وهو يشعر بفخر من موهبة الفتى، ثم قال:

– أنت فتى ذكي يا سالم وسيكون لك شأن في الهندسة، ولا أستبعد أن تكون مهندس

الدولة الأول عندما تكبر إن شاء الله، وأتمنى حينها أن أكون موجودًا لأفتخر بك

– أطال الله في عمرك يا سيدي وبلغك عني الأجر.

– دعك من كل هذا، وهيا سمع لي المتن الذي نظمناه معًا الدرس السابق.

- كما تأمر سيدي.

اندفع سالم يندمج في درسه ولكن عقله ظل مشغولًا بما خلف الباب الموصد، لا يعلم لماذا.

يضن عليه شيخة برؤية آخر إنجازاته التي يظنها مبهرة، غير أنه قرر ألا يستسلم ويعيد محاولة استجدائه مرة أخرى ليريه التصاميم.

* * *

أطل ضوء القمر باستحياء من بين أغصان الأشجار المتشابكة التي تظللهم كأنها تخبئهم عن الأعين،

استيقظ السهم على صوت طارق الذي كان يحاول إيقاظ مريم فتقدم منه قائلًا بقلق:

- ألم تستيقظ بعد؟

هز طارق رأسه نافيًا، ثم قال وهو يمسك معصمها:

- إن نبضها ما زال ضعيفًا، ولا أدري لماذا؛ ألم ننتقل بالميقاتة إلى زمن آخر ولا بد أن تعود أجسامنا إلى طبيعتها.

هز السهم رأسه في حيرة ثم قال:

– يبدو أن مريم مختلفة عنا هناك شيء داخل جسدها لا أدري ما هو؟

جلس طارق القرفصاء أمام السهم الذي انكب على ذراع عباءته الأيمن يعبث به بتركيز شديد وكأنه شاشة شديدة الحساسية قبل أن يرفع رأسه نحو طارق ليقول بارتباك:

– أعتقد أن هناك شريحة إلكترونية دقيقة مزروعة في خلايا دماغها وبالتأكيد من خلالها تتلقى تعليمات المنظمة.

– أنت واثق من ذلك؟

أومأ السهم برأسه، وعاد إلى عباءته يعبث بشاشتها من جديد ليسأله طارق:

– ما الذي ستفعله الآن؟

– يجب أن أبطل عمل الشريحة.

– تعتقد أن الأمر سوف ينجح؟

– نحن نحاول؛ كما رأيت انتقالنا إلى زمن جديد ولم يعد إلى مريم وعيها، وأعتقد أن

الشريحة المزروعة بخلايا دماغها هي السبب، وأنا أحاول الآن إبطالها.

صمت طارق وقد التفت إلى مريم الممددة على الأرض بوجه شاحب انسحبت منه الدماء وعينان مغمضتين معلنتين عن غيابها التام عن الوعي، وجسد ساكن تمامًا عن الحركة، ولولا حركة صدرها البطيئة التي تنبئ أن قلبها لا يزال ينبض بضعف شديد لاعتقدا أنها فارقت الحياة فعليًّا، مازال طارق يشعر بالقلق والتوتر فعاد ليسأل من جديد: «أنت واثق من أن هناك شريحة بالفعل؟».

ودون أن يرفع رأسه أجابه السهم بثقة: «أجل، المعلومات التي أدرجتها عباءة جدتي لا يمكن أن تخطئ».

– ماذا لو أن المنظمة عرفوا ما تحاول القيام به، ألن يكون في ذلك خطر على حياتها؟

– من المحتمل طبعًا، ولكن يجب أن أفك تلك الشيفرة اللعينة بسرعة فربما يقومون بتفعيل نظام أمان لحماية شريحتهم وإبقائها قيد العمل أو إيقافها، وحينها ستكون الكارثة.

– ما الذي تعنيه ؟

قالها طارق بذعر.

– إيقافهم لعملها معناه أنهم يريدون التخلص منها، لذلك أريد أن أسبقهم بخطوة وأتحكم أنا بإيقافها لنخرجها عن سيطرتهم وفي نفس الوقت ننقذ حياتها.

كان السهم يحرك يديه على الشاشة بسرعة كبيرة يكتب أرقامًا ويمسح أخرى، فجأة سمع دوي صفير طويل انتفض له طارق ليقول: «ماذا هناك؟».

– لا أعرف إن كنتُ نجحت بالفعل أم لا يجب أن أنتظر لأرى ما الذي سيحدث.

رفع السهم رأسه أخيرًا مصوبًا نظراته نحو مريم الساكنة، ثم عاد ينظر إلى عباءته مجددا قبل أن يقول: «أظن علينا الآن أن نتحرك لنبحث عن طبيب».

* * *

في المساء كان سالم عائدا من صلاة العشاء في المدينة، عندما مر ببيت سيده فكر أن يمر ليطمئن عليه خاصة أنه لم يقابله في صلاة العشاء كعادته؛ كان الباب مفتوحًا قليلًا فدق عليه طرقات خفيفة ولكنه

لم يجد إجابة، ظن أن «مصباح» خادم سيده قد ترك الباب مفتوحًا وخرج في قضاء بعض مصالحه، ولا شك أن سيده قد ذهب إلى خلوة في الغابة؛ راودته فكرة الدخول وإلقاء نظرة سريعة على صندوق سيده الصغير قبل تسليمه، حسم أمره واندفع إلى الغرفة المحظورة فتحها ببطء واتجه إلى الصندوق الذي يخبئ فيه شمس الدين أحدث رسوماته، فتح الصندوق بحذر ورأى رسومات معلمه شعر بالزهو قليلا ولكن جلبة خفيفة في الخارج انبأته بقدوم أحدهم، فأعاد الأوراق إلى مكانها، ثم قام مسرعًا ليختبئ، فلو لمحه سيده لطرده شر طردة. لم يجد أمامه سوى زير المياه فاندس داخله؛ لحسن حظه كان الزير فارغًا إلا من ربعه، سمع همهمات حوله لا تدل على أن القادم صاحب البيت، ففتح غطاء الزير قليلًا ليلمح ثلاثة ملثمين يفتحون صندوق سيده ويبدلون الأوراق بداخلها ثم يعيدونها مكانها ويفرون خارجين، خرج من مكانه واتجه إلى الصندوق فتح الأوراق سريعا لم تكن هي التي رآها منذ قليل.

- يا إلهي، لماذا بدل هؤلاء اللصوص رسومات سيدي؟

اندفع خارجًا كان الثلاثة يسرعون في طريقهم باتجاه الغابة، تبعهم بحذر حتى وصلوا لنقطة كانوا يخبئون أحصنتهم فيها، هموا بفك

ألجمتها وقبل أن يمتطوها خرج لهم سالم الذي شعر أن مجهود سيده سيضيع هباء، ولا بد وأن يحاول الحصول على الأوراق بأي ثمن.

لم يفكر كثيرًا، أخرج مقلاعه الصغير ووضع به حجرًا صغيرًا، وبرمية ماهرة أصاب رأس

أحد الحراس، ورغم أن الحجر لم يدميه إلا أنه آلمه، وبنظرة خاصة فهم أصدقاؤه إشارته،

وبحركة تليق بمحترفين انشق الاثنان عنه بينما وقف هو يتلقى الحجارة من المقلاع الصغير وهو يمثل أنه متألم، مما شجع سالم على ضربه بكثافة من خلف شجرة السنط المختبئ خلفها، ولكن لم يمض إلا دقيقتان وقد عرف اللصان مكانه قبل أن يقبضا عليه ويلقياه تحت أقدام سيدهما:

- من أنت؟

سأله الزعيم بصوته الأجش فجاوب شامخًا:

- أنا تلميذ الشيخ الذي سرقتم أوراقه، وأريد استرجاعها.

ضحك الثلاثة باستهزاء قبل أن يسأل أحدهم:

- ماذا نفعل به؟..

- اقتلوه.

* * *

- أظن أن علينا أن نجد طبيبا ينقذ حياة مريم حتى نتأكد من أننا نجحنا من التخلص بالفعل من تلك الشريحة اللعينة.

قالها السهم ليومئ له طارق قبل أن ينحني ليحمل مريم بين ذراعيه وينطلق محاولًا الخروج من الغابة، تبعه السهم بعد أن تأكد أن الميقاتة كما هي فوضعها في حقيبته وسار صامتًا؛ بعد دقائق من توغلهم في الغابة سمعا جلبة تأتي من الشرق فتتبع طارق الصوت بحذر، بينما ظل السهم مع مريم عاد بعد دقيقة قائلًا:

- ثلاثة جنود فرنجة يهاجمون طفلًا أندلسيًّا، لا بد أن ننقذه.

عدل السهم من عباءته الإلكترونية قائلًا: «هيا بنا».

كان الجندي يوشك أن يضرب سالم بسيفه عندما رشق السهم خنجره في رقبته ليخر

صريعًا، بينما اندفع طارق يكيل لهما اللكمات، ورغم المفاجأة إلا أن اللصين كانا قويا

البنية، وزاد من غضبهما مقتل ثالثهما، انضم إليه السهم الذي ساعدته عباءته على

مجاراتهم في القتال، وأيضًا أيقن اللصان أنهما أمام خصمان لا يستهان بهما فتخليا عن

سيفيهما اللذين سقطا على أرض المعركة واندفعا إلى أحصنتهما ليلوذا بالفرار.

- هل أنت بخير؟

قالها طارق لسالم الذي ثار في وجهه بغضب:

- هيا الحق بهما، لا بد أن نستعيد الأوراق.

اقترب السهم الذي كان قد كشف اللثام عن اللص الصريع قائلًا:

- اهدأ لقد فرا ولن نستطيع اقتفاء أثرهما، الحمد لله أنك بخير. هؤلاء جنود الفرنجة ماذا يريدون منك؟..

تجاهل سالم سؤاله وهو يقول غاضبًا:

- ويلكم! ماذا فعلتم؟!.. لقد أضعتم كل شيء.

رد طارق يتعجب من أسلوبه غير المهذب:

- لقد أنقذنا حياتك يا فتى.

- لقد أضعتم أوراقًا هامة عليها رسومات سيدي تخص مولاي عبد الرحمن بن الحكم.

تبادل السهم وطارق النظرات ثم قال السهم:

- لم نكن نعرف بهذه الأوراق لقد كان همنا إنقاذك.

زفر الفتى ثم قال:

- لا بأس، شكرًا لكما على صنيعكما يبدو أنكما غرباء؟

- نعم نحن غرباء وكنا نبحث عن طبيب معنا مريضة بحاجة إلى العلاج لننقذ حياتها.

- أمي طبيبة المدينة.

عادا الثلاثة إلى حيث تركا مريم ليحملها طارق مجددًا وينطلق الجميع إلى بيت سالم.

* * *

قصر قرطبة

على طاولة كبيرة في قاعة الحكم الذي يخصصها عبد الرحمن بن الحكم للمشورة في قصر قرطبة الذي يعد تحفة معمارية وآية في التصميم والجمال؛ جلس وزراء الدولة ومستشاريها يتناقشون، وبدا أن أصواتهم تحدث همهمة خفيفة توقفت فجأة عندما صرخ الحارس الذي يقف على الباب الضخم للقاعة معلنًا قدوم الأمير:

- مولاي الأمير عبد الرحمن بن الحكم.

هم الجميع بالوقوف بينما دخل الأمير في خطواته الواثقة كعادته، وأشار بيده إلى الجميع بالجلوس، فجلسوا قبل أن يصل إلى رأس الطاولة، تحدث بعد أن ألقى السلام واطمئن على أحوالهم، موجهًا حديثه إلى الوزير الجالس على الكرسي الرابع جهة اليسار:

- أخبرني يا سيد عبد الله، ما هي آخر التطورات لديك؟

تنحنح عبد الله بلا مبرر ثم تحدث:

- تم الانتهاء من بناء حديقة مدينة طليطلة الرابعة يا مولاي، وتم فتحها للعامة كسابقيها كما أمرت يا سيدي.

- عظيم وعيون المياه؟

- أنشأنا سبع عشرة عينًا للعامة هذا الشهر في ربوع الأندلس، وما زلنا نكمل خطتنا كما اتفقنا عليها يا مولاي.

- إياك أن تقل جودة المياه في هذه العيون عن التي في القصور، لا نريد أن يشعر الناس أن أمراءهم يتمتعون بشيء لا يستطيعون الحصول عليه.

- إذا أذنت لي يا سيدي، لي رأي في هذا.

قالها الوزير مختار الدين الذي كان يجلس في الجهة المقابلة للوزير عبد الله.

- تفضل يا سيد مختار الدين.

- يا مولاي إنك تغدق على العامة بشكل لا يصدق، إذا أذنت لي أقترح أن تكون الحديقة الأخيرة للأمراء وكبار الدولة فقط، فالعامة لديهم حدائق كثيرة بل إنك أنشأت لهم البنيان للسكن إن العمارة في الأندلس تكلف البلاد أموالًا طائلة.

زاوى الأمير عبد الرحمن بين حاجبيه، وقبل أن يجيب التفت إلى ولي عهده محمد بن عبد الرحمن بن الحكم الجالس بجواره سائلًا

- ما رأيك يا محمد؟

- أرى أن حديث الوزير قد جانبه الصواب، فالأموال هي أموال الشعب ومن حقهم الاستمتاع بها ما نحن إلا مكلفين بإدارتها وصرفها في المناحي الصحيحة ومصارفها الشرعية والحمد لله لم يعد في الأندلس فقير.

- بارك الله فيك يا ولدي.

ثم التفت إلى الوزير مختار قائلًا:

- أتدري يا سيد مختار، ما هي مشكلتك الكبرى؟..

صمت مختار فتابع الأمير:

- أن نظرتك دائمًا ضيقة، لا تنظر إلى الصالح العام، ولا تقر بداخلك أنك مكلف بمنصبك ولست مشرفًا به.

- يا مولاي كل ما في الأمر أنني أخشى أن يفسد الشعب من هذا الدلال والترف فلا نستطيع مواجهة الأعداء..

- ومن قال إن هذين يتعارضان إذا اعترفت بداخلك أن الأموال التي في بيت المال هي أموال العامة لن تضن عليهم بحقهم فيها، ثم

إننا نصرف جزءًا لابأس به على العلماء والعلم الذي أصبح متاحًا للعامة أيضًا؛ كلما ربيت شعبك على العزة والكرامة والتمسك بأمور دينهم لن يترددوا أبدًا في الجهاد مهما عاشوا في ترف، المهم أن تكون الدنيا في اليد وليست في القلب يا مختار الدين.

بدأ مختار يتصبب عرقًا فتابع الأمير:

- استعد يا سيد مختار ستذهب إلى الحج هذا العام مع حجاج الدولة.

- هذا شرف كبير يا مولاي.

تجاهله عبد الرحمن، ثم التفت إلى ولي العهد قائلًا:

- أخبرني يا محمد، ما هي آخر تطورات حملتك الأخيرة؟

- كما رفعت لك ياس يدي في تقريري تم القضاء على الثورة وقتل الخونة، بعد أن تبين لنا أنهم تآمروا مع الفرنجة، كنتُ أريد أن أقول يا مولاي أننا بحاجة إلى مزيد من التجهيزات لتعزيز قوة جيشنا.

أومأ له عبد الرحمن موافقًا وهو يقول:

- غدًا سيسلم شمس الدين تصميمه الجديد للمنجنيق، سيجعله طويل المدى وهذا ما نحتاج إليه في حصارنا وحربنا.

ثم أشار الجالس بجوار محمد:

- هذا التصميم أريدك يا سيد عبد الحكم أن تشرف على تنفيذه بنفسك بسرية تامة وكأننا نبني منجانيقًا عاديًّا، إذا نجح إن شاء الله سوف يساعد جيوشنا في تقليل وقت الحصار للحصون وسوف يُقدم لنا نقلة كبيرة في تجهيزات جيوشنا.

- كما تأمر يا سيدي.

أكمل الأمير مناقشة أمور الدولة في الاجتماع الذي امتد إلى ساعتين ثم أمرهم بالانصراف عدا ولي عهده الذي التفت إليه قائلًا:

- أتدري يا محمد لماذا اخترتك وليًّا للعهد دون إخوانك السبعة والثلاثون.

صمت محمد يستمع إلى أبيه فتابع:

- ليس لأنك ولدي الأكبر كما يظن الجميع، بل لأنك الأجدر لقد أعددتك للحكم قبل أن أتولى أنا الإمارة، إنك رحيم كأمك قوي البأس كجدك عبد الرحمن الداخل، إياك يا ولدي أن تغرك قوتك يومًا فتنسيك الرحمة بالمسلمين. وإياك والتصغير من آلام المسلمين ومن احتياجاتهم، حتى ولو كانت الحروب الخارجية على أشدها،

فالداخل لا يقل أهمية عن الخارج، وإياك أن تلين أبدًا للأعداء أو تخفض لهم جناح الرحمة، فهم إن وجدوا منك هذا افترسوك ودمروا دولتنا في غمضة عين، كن أسدًا كأجدادك واقتدِ بسُنة نبيك دومًا، وإذا ما عاد الأمر إليك قرب إليك العلماء وأمنهم، فهم سينصحونك بالحق وسيعيدونك إلى سنة نبيك إذا ما شردت.

- أطال الله لنا في عمرك وبارك الله في أثرك يا مولاي.

* * *

انطلق طارق والسهم حاملين مريم الغائبة عن الوعي مع سالم مجتازين شوارع قرطبة الضيقة والمرصوفة بالحجارة وهما يتطلعان إلى المباني المشيدة بتصاميم مميزة أقواس مزخرفة ونوافذ صغيرة والجدران مكسوة بزخارف عربية ونقوش هندسية، كان مشهد مريم بين ذراعي طارق يثير انتباه المارة الذين يتحركون بدورهم في الشوارع لممارسة حياتهم الاعتيادية، لم يستطع السهم إبعاد نظره عن التطلع إلى الحدائق التي مروا من خلالها فقد كانت تخطف الألباب بتصميمها البديع وتنظيمها الدقيق وتنوع الأشجار المثمرة التي تلقي بظلالها على أماكن للاستراحة من مقاعد حجرية ومنحوتات رائعة؛ التي

تعد ملاذًا للراحة، بالإضافة إلى النباتات العطرية والأزهار الملونة مثل الياسمين والورد ناشرة عبيرها في الجو، وصلوا أخيرًا إلى أحد الأحياء بالقرب من المسجد الكبير للمدينة، توقفوا جميعًا أمام الباب الكبير التي تتدلى على جانبيه فوانيس نحاسية لامعة، طرق سالم الباب الخشبي المزخرف بنقوش عربية مستخدمًا مطرقة نحاسية صغيرة، وسرعان ما فتح الباب خادم صغير، التفت سالم نحوهم يدعوهم إلى الدخول قائلًا:

- تفضلوا، أهلًا بكم في بيتنا.

عبروا المدخل ليجدوا أنفسهم في فناء داخلي مزين بالأشجار والنباتات العطرية، يتوسطه نافورة صغيرة تهمس بالماء الذي يتدفق منها بهدوء، التفت السهم وطارق نحو سالم الذي قال: «سوف أذهب لأنادي أمي، لا تقلقا بشأن مريضتكما فأمي أشهر طبيبة في قرطبة».

أومأ له موافقين وظلا واقفين يتأملان المكان، وما هي إلا لحظات حتى خرجت إليهم امرأة شابة ترتدي ثوبًا بسيطًا يغطي رأسها وشاح حريري أبيض وعلى وجهها ابتسامة هادئة، اقتربت من طارق وعيناها على مريم تنظر إليها بإشفاق قبل أن تشير إليه بأن يتقدم

ليضعها على سرير صغير يحتل إحدى الزوايا، بدأت زينب تفحص مريم بعناية، تضع يدها على جبينها لتتحسس حرارتها، وتتفحص نبضها بعين خبيرة ثم التفتت نحو طارق متسائلة:

- أخبروني ما الأعراض التي عانت منها قبل أن تفقد وعيها؟

- لقد عانت من حمى شديدة جعلتها ترتجف بشدة وفي أوقات كثيرة عانت من الهذيان، لقد قدمنا لها بعض الأعشاب التي يفترض أن تزيل الحمى، لكنها فقدت الوعي بشكل مفاجئ...

أجابها السهم وهو يتابعها بعين مترقبة.

- لا تقلقوا ستكون بخير.

قالتها زينب وقامت من مكانها لتنادي على خادمها ليحضر لها حقيبتها الطبية.

* * *

إشبيلية

في غرفة مضاءة بضوء خافت انحنى القس ألفونسو قس مدينة إشبيلية على مكتب خشبي قديم وبيده قلم من الحبر كان قد أهداه إليه ابن الحزم، الحاكم الأندلسي للمدينة بعد أن اخترعه عباس بن فرناس منذ شهور قليلة، وكان من نصيب مدينته ثلاثة أقلام رأى حاكم المدينة أن يكون من نصيب القس قلم منها لتسهل عليه عملية النسخ بدلًا من الريشة والمحبرة.

حرك ألفونسو القلم في يده مفكرًا في الكلمات المناسبة وهو ينظر إلى النافذة الصغيرة التي تقابله، ثم طوى الورقة التي أمامه وبدأ بالكتابة في ورقة جديدة بتركيز شديد حتى إنه لم ينتبه لمساعده الذي دخل ووقف أمامه دون أن ينبس ببنت شفة. انتهى القس من كتابه ثم طواه بحرص وهو ينظر بحماس إلى مساعده قائلًا:

– أريدك أن تذهب إلى الملك يان أيونسايد عند مصب نهر لورا وتعطيه هذا الكتاب على عجل.

- هل تريدني أن أذهب إلى ملك النورمان[1] بنفسي يا سيدي؟ إنني أرتعب من مجرد ذكر اسمهم.

- إنني لا أثق بأحد غيرك يا بيرا، أنت بمنزلة ولدي الذي ربيته.

- وأنت دائمًا بمنزلة أبي، ولكن ما تطلبه خطير ولو أمسك بي أحد من جنود المسلمين ستكون حياتي في خطر.

- لا تقلق المسلمين، لا يعيقون تنقل القساوسة بين المدن ثم إن الرسالة هذه سيكون بها خلاصنا.

- خلاصنا؟

- نعم لقد دعوت النورمان للقدوم إلى الأندلس واقتحامها، وذكرت لهم الخير الكثير الموجود فيها.

- ولكن يا سيدي إن هؤلاء القوم قد يكونون أكبر تهديد لنا؛ إننا نعيش بين المسلمين بسلام لن نتمتع به أبدًا في قدومهم ما أسمعه عنهم أنهم يدمرون الأخضر واليابس.

(1) النورمان أو رجال الشمال أو المجوس كما يسميهم العرب وهم الفايكينج وهم شعوب اسكندنافية قاموا بعدة غارات همجية لغزو أوروبا.

- لا يهم أي شيء، المهم هو كسر شوكة المسلمين وطردهم من الأندلس، لن يستطيع أحد مجاراة المسلمين سوى النورمان كل ممالك الفرنجة استسلمت وهادنت عبد الرحمن بن الحكم، وإذ لم نتصدى له سيحكم العالم بقوته الطاغية ولن يستطيع أحد إيقافه.

- ولكن جيش المسلمين قوي بالفعل يستطيع التغلب عليهم بسهولة إذا اتحد.

- لقد شرحت هذا في رسالتي، ولكني وضحت لهم أسهل السبل والطرق لاقتحام المدينة وسأتعاون معهم من الداخل لتيسير الدخول، وسنعتمد على سرعة هجماتهم ووحشيتهم في سبيل تدمير المدينة سريعا قبل وصول المدد.

- إنه رهان خاسر يا سيدي، لن يتردد ابن الحكم في إرسال جيشه بقوته الطاغية وسيفتك بالنورمان وبنا أيضًا إذا علم عن خيانتنا.

- أنت لا تعلم باقي الخطة؛ ليلة الاقتحام سيتم تسميم الحمام الزاجل كله وسيضطر ابن الحزم إلى إرسال رسول إلى علام بن الحكم طالبًا مددًا، ولبعد المسافة بين قرطبة والغرب

الأندلسي سيأخذ الرسول وقتًا يكون النورمان فيه قد دمروا أشبونة)لشبونة(، وأحكموا سيطرتهم على إشبيلية، لا تقلق لقد درست الخطة مرارًا وتكررًا وستنجح.

– كما ترى يا سيدي؛ سأستعد لأكون على الطريق بعد ساعة على الأكثر.

– باركك الرب يا فتى.. باركك الرب.

* * *

جزيرة نورمتيه

داخل قاعة العرش الواسعة المزينة بالأعلام الحمراء التي تحمل شعارات الفايكينج، وعلى الجدران علقت عدد من الدروع، والسيوف، والمطارق الكبيرة والمشاعل التي تلقي بظلالها على وجوه الحاضرين حيث يجلس في صدر القاعة الملك يان ايونسايد على كرسي من الخشب المزين بالعاج بلحيته الطويلة وعينيه الحادتين تدوران بتحفز قبل أن تتوقف عند أحد رجاله ليسأله باهتمام:

– ما هي أخبار الغزوات في الجنوب؟ هل عاد محاربونا منتصرين كما وعدوا؟

- مولاي الملك، الأخبار وصلت من قائد الحملة، لقد حققوا انتصارًا كبيرًا في قرى الجنوب، والغنائم وفيرة. لكن هناك أنباء أخرى قد تقلقك، سمعت أن الممالك المجاورة بدأت تجمع جيوشها، استعدادًا لرد الهجوم.

ابتسامة ساخرة ارتسمت على وجه الملك وهو يجيبه بثقة قائلًا:

- فليجهزوا ما شاؤوا من الجيوش وسوف نذيقهم طعم سيوفنا.

تحدث مستشار الملك إيغور قائلًا بصوت هادئ: «أعتقد يا مولاي أننا يجب أن نحذر من جيوشهم، فقد يشكلون تهديدًا لنا إذا ما اتحدوا ضدنا».

اتكأ الملك يان بمرفقيه على حافة الكرسي، مادًّا جسده إلى الأمام وعيناه تلمعان بحدة:

هل تشك في قوة محاربينا؟ نحن أحفاد الآلهة، لا شيء يمكنه الوقوف في وجهنا. لكنني لن أترك شيئًا للمصادفة، سوف نستعد للمعارك جيدًا.

فُتحت أبواب القاعة ليتقدم الحارس نحو الملك وينحني مقدمًا التحية قبل يقول فجأة:

إن هناك رسولًا في الخارج، يقول إنه يحمل رسالة من القس ألفونسو من إشبيلية.

تغضن جبين الملك يان باستغراب، ثم طلب من الحارس أن يدخل الرسول، تقدم بيرا بخطوات حاول جاهدًا أن يجعلها ثابتة رغم الرجفة التي كانت تسري في سائر جسده وقلبه يطرق بقوة، توقف أمام الملك وانحنى قبل أن يخرج من بين ثيابه رسالة مغلقة بختم الكنيسة ليقدمها إليه قائلًا:

- مولاي الملك، جئتُ أحمل لك الخير الكثير لو وافقت على ما أرسله إليك سيدي القس ألفونسو.

تملك الفضول من الملك يان وهو يأخذ الرسالة ليفتحها بسرعة، وأخذ يقرأها وملامحه تتغير وعيونه تتألق بحماس بدأ يتصاعد، رفع رأسه وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة ماكرة، نظر إلى رجاله قائلًا:

- يبدو أن الكنيسة تريد منا أن نقوم بغزو إشبيلية ما رأيكم؟

رفع إيغور رأسه ليقول بصوته الرزين:

- لا شك أن الغنائم ستكون عظيمة، لكن الطريق محفوف بالمخاطر.

وقف الملك يان وتقدم بخطوات بطيئة نحو صدر القاعة ليقف وسط رجاله الذين وقفوا جميعًا قبل أن يقول:

- سوف نجعلهم يعرفون قوتنا قريبًا.

تحرك متجها نحو طاولة حجرية وضعت فوقها خريطة جلدية كبيرة أخرج خنجره وأخذ يحركه فوق الخريطة حتى توقف فوق إشبيلية لترتسم على وجهه ابتسامة واسعة توحي بأنه اتخذ قراره النهائي وبسرعة.

* * *

في جزيرة نورمتيه عند مصب نهر لوار علت أصوات الأمواج الهادرة لتختلط بأصوات جنود النورمان القوية وهم يصرخون ويتحركون بسرعة نحو السفن المتوقفة في الميناء بأشرعتها الحمراء الدموية، كان الجنود أقوياء يرتدون أدرعًا حديدية مستديرة ويحملون أسلحتهم الفتاكة، يتحركون على طول الميناء، بعضهم ينقل صناديق المؤونة وكل ما يحتاجون إليه في خلال حملتهم، والبعض الآخر يقومون بتثبيت الأشرعة وشد الحبال بإتقان وهم يستمعون لتعليمات قائد الجيش «هاستين»، بينما يقف الملك يان يراقب الاستعدادات

بحماس كبير وإلى جانبه مستشاريه، تقدم هاستين نحو الملك ليقف أمامه قائلًا:

- نحن على وشك الانتهاء من جميع الاستعدادات لننطلق نحو هدفنا.

أومأ له الملك يان ليلتفت هاستين نحو رجاله ليصرخ فيهم:

- أيها المحاربون الأشداء نحن على أعتاب مجد عظيم، سنغزو العالم ونحقق الانتصارات العظيمة، ولن يسمع صوت سوى صليل سيوفنا وصرخات أعدائنا.

هتف الرجال بصوت مرتفع وهم يرفعون أسلحتهم يلوحون بها في الهواء.

وما هو إلا وقت قصير حتى انطلقت السفن في التحرك ببطء مبحرة نحو الأفق الواسع، وصل الأسطول إلى غاليسيا بعد أن أتم هجومه على بوردو ونهب كل ما في طريقه، ثم شرع في السطو على جميع القرى الساحلية التي يمرون عليها، تاركين خلفهم جثثا منتشرة في كل مكان ونيران تلتهم ما يخلفونه بعد أن يستولوا على كل ما هو قيم، ومن غاليسيا عاد الأسطول للتحرك جنوبا نحو أشبونة وأعينهم لا تزال على إشبيلية.

أشبونة

كان وهب الله بن حزم عامل مدينة الأشبونة جالسًا في محرابه يتلو أذكار الصباح بعد أن فرغ من صلاة الفجر عندما اقتحم أحد الحراس خلوته وهو يقول بانفعال:

- سيدي لقد وصل المجوس إلى حدودنا، اجتاحت سفنهم الموانئ، وأهالي المدينة في حالة ذعر وفوضى.

هب بن حزم من مجلسه واندفع إلى مكتبه؛ كتب رسالة على عجل ثم ختمها ولفها سريعًا وهو يقول: «أرسل هذه الرسالة إلى مولاي عبد الرحمن فورًا».

- لقد تم تسميم الحمام كله ليلة أمس، يبدو أن هناك خائنًا يا سيدي.

سيطر ابن حزم على غضبه ثم قال وهو يفض الرسالة ليجري عليها بعض التعديلات:

- لا يهم سنكتشفه عاجلًا بإذن الله، والآن علينا أن نتخذ التدابير اللازمة لحماية مدينتنا ودفع الكفار خارج أرضنا حتى يصل إلينا المدد من قرطبة.

صمت قليلًا ثم أضاف بعد تفكير:

– اذهب بهذه الرسالة إلى مولاي عبد الرحمن بن الحكم في قرطبة وأخبره بما حدث على عجل، وسنصمد نحن في وجه الأعداء بإذن الله.

أخذ الحارس الرسالة وانطلق مسرعًا، بينما اندفع ابن الحزم للخروج على رأس جيشه لمقابلة مناوشات النورمان الهمجية.

* * *

اقتحم النورمان أوروبا ونهبو خيراتها وبدأوا يبحثون عن أراضٍ جديدة للوصول إلى خيراتها، خاصة وأن أسطولهم وقواتهم ما زالت قوية، تبث الرعب في القلوب. كانوا حذرين من الاقتراب من الأندلس، لعلمهم بقوة المسلمين آنذاك، ولكن رسالة ألفونسوا ساهمت في تحفيزهم على اقتحامها، فلقد أورد في رسالته ثغرات المدينة، وسهل لهم سبل الوصول إليها، وبالفعل تقدموا نحوها بأسطول كبير كأن البحر قد ملئ طيرًا، حاول ابن حزم المقاومة بكل ما أوتي من قوة هو وجنوده، ووضع الرماة على أسوار المدينة وعلى الأبراج، ولكن الأبواب المتهالكة التي كانت في الخلف لم تصمد

كأن هناك من دلهم عليها، ووجد الجنود أنفسهم في مواجهة عدد ضخم من المهاجمين، وساد الهرج أكثر بين السكان، وأصبحت الغلبة للفايكنج، فلجأ ابن حزم إلى المناوشات من أجل كسب الوقت حتى وصول المدد، ولكنهم بمعاونة الخائن ألفونسو استطاعوا السيطرة على المدينة ونهبها لمدة ثلاثة عشر يومًا استطاع فيها ابن حزم أن يجمع قواته ويستمر في المقاومة مع سكان المدينة، فاضطر الفايكنج إلى ترك المدينة والمرور عبر نهر الوادي الكبير للوصول إلى هدفهم الأصلي مدينة إشبيلية؛ نهبوا في طريقهم قادش وشيذونة، وما زال الخائن ألفونسو يدلهم على الطريق ويحثهم على الإسراع قبل وصول الخبر إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم.

* * *

إشبيلية

بزغ فجر يوم جديد على سكان مدينة إشبيلية تلك الجوهرة الأندلسية المفعمة بالبريق واللمعان، السماء ملبدة بالغيوم الداكنة، والضباب الكثيف يلف المدينة كأنه عباءة من الغموض تستعد لقدوم شهر أكتوبر، بعد أيام قليلة تفاجأ الأهالي بقدوم أسطول الغزاة

النورديين الطامعين في سلب قلب هذه الجوهرة الثمينة والغوص في كنوزها.

هؤلاء الوحوش الأدمية يتقدمهم قائد عملاق ذو لحية حمراء تتدلى حتى صدره، يطلق صرخة حرب مزلزلة، فتتجاوب معها باقي الفرق بصوت واحد يهز الأرض من تحت أقدامهم، ولكنهم يتجهون نحو إشبيلية التي كانت في الماض ي صعبة المنال مشاة بأقدام ثابتة كأنهم قطع من الحديد، وجوههم قاسية، عيونهم تلمع تحت خوذهم الحديدية، وأيديهم تقبض على السيوف والفؤوس بحزم تاركين خلفهم أسطول من السفن الطويلة ذات الرؤوس التنينية المرعبة، وذلك بعد أن أحرقوا مداخل المدينة.

وفي المدينة، بدأ الناس بالفرار نحو الأزقة الضيقة، صراخ وهرج يسود الأجواء، وصوت قرع الطبول ونفخ الأبواق يدوي في كل مكان.

تجمع جنود الحامية السلامية متأهبين لقتال الغزاة، شاهرين سيوفهم، ومن خلفهم الرماة يستعدون ويشعلون سهامهم قبل إطلاقها باتجاه المهاجمين. لكن الفايكنج لا يتوقفون، يرفعون دروعهم لصد السهام، ويقتحمون المدينة باندفاع هائل.

لم تصمد الحامية ولا المدينة أمام هذا السيل الجارف، فاقتحمت الأبواب لتُفتح على مصراعيها ليتقدم المجوس وينتشرون في شوارعها كالكلاب الجائعة، تعالت أصوات الاشتباكات، وصوت الحديد يصطدم بالحديد، والدماء تسيل على الأرضيات المرصوفة بالحجارة تلطخ المدينة التي كانت آية في الجمال والرقي، المجوس يقتلون كل من يعترض

طريقهم، فهم يدركون أن المسلمين هي آخر قوة تستطيع صدهم، لذلك حرصوا على أن يكون الهجوم أكثر وحشية ودموية من أي مكان آخر اقتحموه من قبل؛ كانوا يدخلون المنازل والقصور ينهبون الكنوز ويشعلون النيران في كل مكان، ينتهكون الأعراض ويسبون النساء، لم تسلم كنيسة ولا مسجد من بطشهم حتى المسجد الكبير الذي بناه عبد الرحمن بن الحكم والذي لجأ إليه سكان المدينة للاختباء من هؤلاء الوحوش وقع بحوزتهم. ولم يتكلف الهجوم إلا بضع ساعات حتى سقطت لؤلؤة الأندلس أسيرة تحت أقدام الغزاة تاركة جرحًا غائرًا في صدور المسلمين، والجميع يتساءل إذ لم يستطع المسلمون في الأندلس التصدي لهؤلاء القتلة فمن سيقف أمامهم بعد الآن؟..

* * *

قرطبة

أذن الفجر فخرج طارق والسهم بصحبة سالم للصلاة، وبعد الانتهاء منها عاد طارق إلى المشفى الملحق ببيت الطبيبة زينب لمتابعة حالة مريم، بينما انطلق السهم بصحبة سالم إلى بيت شمس الدين لإخباره بأمر السرقة، توقف السهم وبجواره سالم الذي ذهل عندما وجد مجموعة من الجنود يقفون أمام بيت شيخه فاندفع يسألهم بقلق:

- ما الذي حدث؟

أجابه أحد الجنود: «لقد قُتل الشيخ شمس الدين، وقائد الجند أمر بتحقيق عاجل؟».

حاول الفتى الصغير أن يستوعب ما يقوله الجندي، حاول أن يتجلد ويفكر، ولكنه لم يتمالك نفسه فبكى بحرقة أشفق السهم عليه فحاول أن يخفف عنه، لم يكن جيدًا في مثل تلك المواقف، ولا يدري ماذا يفعل، بحث عن جملة مناسبة تقال في مثل تلك المصائب، فربت على كتفه قائلًا:

- رحمه الله، لقد أدى ما عليه.

زاد شهيق سالم وهو يقول:

– لقد علمني كل العلوم علمني، كيف أكتب وكيف أفكر، علمني الأحاديث، علمني الطب والهندسة، لقد تلقيت منه الكثير.

شعر السهم بألم في داخله وهو يتذكر عزيزًا عليه فقده منذ زمن، فزفر بأسى قائلًا:

– أعلم أعلم، لقد كانت جدتي هكذا.

وقبل أن يكمل تغيرت ملامح سالم وتوقف عن البكاء وهو ينظر إلى بقعة خلف السهم، فنظر حيث ينظر ليجد الجنود يخرجون صندوقًا ويضعونه أمام قائدهم، لم يكن السهم يعرف أهمية الصندوق، ولكن القائد فتحه، ثم قال وهو ينظر داخله:

– الحمد لله، القاتل لم يأخذ الرسومات التي طلب منا سيدي إحضارها.

ولكن سالم اندفع نحوه وهو يقول:

– هذه الرسومات مزيفة، أنا تلميذه هذه الرسومات غير دقيقة، لقد أخذ القاتل الرسومات الأصلية هذه الرسومات غير دقيقه صدقني.

نظر إليه القائد بإشفاق وهو يرى أثر الدموع على وجهه، ثم ولى نظره صوب الجنود قائلًا:

- هيا، جهزوا جنازة تليق بمقام شيخنا فسيحضرها مولانا الأمير عبد الرحمن بنفسه.

حاول سالم أن يتحدث، ولكن إشارة من يد قائد الجند ألجمته فبكى مرة أخرى، فما كان من السهم إلا أنه احتضنه بأسى قائلًا:

- اهدأ، سنجد حلًّا بإذن الله.

- سنجد حلًّا! كيف؟! لا بد أن يعلم الأمير عبد الرحمن ما حدث قبل أن يبدأ في تصميم المنجنيق.

- حسنًا، سنصل إليه لا تقلق.

- أنت لا تعلم الأمير، وبلاط الأمير الوصول إليه صعب جدًّا، كيف سنصل إليه؟!

فكر السهم مليًّا، ثم قال بهدوء لا يتناسب مع الموقف:

- سنجد بالتأكيد من يوصلنا إليه، لا تقلق.

ثم أشار بيده قائلًا:

- هيا بنا.

تبعه سالم باستسلام وهو يحاول أن يسيطر على دموعه الجارية.

* * *

بداخل المشفى الملحق ببيت الطبيبة زينب، وعلى سرير يتوسط غرفة صغيرة تململت مريم وتحركت أجفانها معلنة عودتها إلى الوعي من جديد، ابتسمت ريحانة مساعدة الطبيبة زينب وهي تقترب من وجه مريم التي تغضن جبينها بعد أن استقبلت عينيها بعضًا من أشعة الشمس المتسللة من النافذة الصغيرة الموجودة في زاوية الجدار المقابل للسرير:

- حمدًا لله على سلامتك.

قالتها ريحانة ومدت يدها تتحسس جبين مريم لتطمئن على درجة حرارتها، لكن هذه الأخيرة رفعت كفها بصعوبة محاولة منعها من لمسها، ابتسمت ريحانة بود قائلة:

- لا تخافي، لقد صرت الآن بخير، سوف أذهب لأخبر سيدتي زينب.

تابعتها مريم بنظراتها حتى غادرت الغرفة، ثم عادت تدير بصرها تتأمل المكان بريبة وهي تحاول الاعتدال في جلستها، لكن دوارًا خفيفًا منعها من الحركة، فعادت لتغمض عينيها محاولة استدعاء تفاصيل ما حدث معها قبل أن تفقد الوعي، لكن الصور جميعها تشوشت برأسها فسببت لها صداعًا شديدًا، فتحت عينيها حين سمعت صوتًا أنثويًّا دافئًا يقول:

- حمدًا لله على سلامتك.

تطلعت مريم إلى السيدة التي تقف أمامها بابتسامة ودودة قبل أن تقترب منها لتحاول بدورها فحص حرارتها، لتسألها بصوت خرج ضعيفًا بالكاد يسمع:

- أين أنا؟ ومن أنت؟

- اهدئي عزيزتي ولا تقلقي، أنا الطبيبة زينب وأنتِ هنا في المشفى الصغير الملحق ببيتي حيث أستقبل مرضاي من أهالي قرطبة.

مدت مريم كفيها لتستند على السرير فأسرعت ريحانة التي كانت تقف خلف زينب لتساعدها حتى اعتدلت في جلستها.

- كيف وصلتُ إلى هنا أنا لا أتذكر شيئًا...

سألت مريم بحيرة.

- أحضرك زوجك وشقيقك.

جحظت عينا مريم بصدمة وهي تنظر إلى زينب قبل أن تجيبها بحدة:

- زوجي من؟ أنا لستُ متزوجة وليس لدي إخوة.

تغيرت ملامح زينب فجأة وتقدمت خطوات نحو السرير:

- ما الذي تقولينه؟ من يكون هؤلاء الشابان اللذان أحضراك إلى بيتي إذَنْ؟ احكي لي ما الذي حدث معك بالضبط؟

حاولت مريم استرجاع آخر ما تتذكره قبل أن تغيب عن الوعي لتتوالى مشاهد مشوشة أمام عينيها، أحدهم يمسكها من ذراعيها ويهددها، مشهد لجنود ومعسكر جيش، صوت امرأة وهي تعاتبها على سهرها خارج البيت دون إخبارها،

كل تلك المشاهد المختلفة والغريبة دفعت بألم شديد ليغزو رأسها فأمسكت به تضغط عليه بشدة وهي تقول: «لا أعرف، لا أعرف، لا أستطيع التذكر بشكل جيد، كل شيء مشوش وغريب في رأسي.

زفرت زينب وتغضن جبينها وقد أدركت أن مريم ليست بخير كما توقعت، جلست أمامها وسألتها بهدوء:

– ما اسمك؟

– مريم.

– هذا جيد، أنتِ تعرفين من تكونين لكنك لا تتذكرين ما حدث معك تحديدًا، أليس كذلك؟

صمتت مريم وهي تحاول أن تتذكر كل ما تعرفه في هذه اللحظة أن اسمها مريم لكنها لا تتذكر شيئًا آخر، بدأت الدموع تتجمع بعينيها منذرة بهبوب عاصفة قريبة وهي تحرك رأسها نفيًا، ثم قالت: «لا أستطيع تذكر أي شيء».

– حسنًا، اهدئي عزيزتي، لا تجهدي نفسك سوف تكونين بخير.

التفتت نحو ريحانة قائلة: «اذهبي واستدعي ذلك الشاب ليحضر إلى هنا».

أومأت لها موافقة وانطلقت بسرعة إلى حيث كان طارق يتحرك بقلق منتظرًا الاطمئنان على مريم بعد أن علم أنها استعادت وعيها،

تبعها بخطوات سريعة ما إن طلبت منه ذلك حتى وصل إلى الغرفة دخل تسبقه نظراته القلقة ليرى مريم جالسة بملامح متعبة، ونظرات تائهة لكنها ما إن رأته حتى انتفضت وصرخت فيه بذعر.

* * *

العام 2041

منظمة البقعة الحمراء

هبط السلمات العشر المؤدية إلى ممر كبير يقطن أسفل مبنى قديم يظن الناس أنه مهجور، ولكنه مفعم بالطاقات التي تعمل في معمل خاص مصفح بالأبواب الحديدية، يعمل به مجموعة من المهندسين المنشقين عن المنظمة هدفهم الأول مساندة زلينكسي فيما يسعى إليه.

دخل زلينكسي المعمل بعد أن خضع لكل عمليات التأكد من الشخصية؛ بصمة العين وبصمة الوجه وحتى تحليل الحمض النووي السريع الذي يظهر بدقائق أمام الباب.

ليواجه المهندس المكلف بإعادة تأهيل شريحة مريم والعمل على زيادة حيويتها:

– أهلًا بكم يا سيدي، لقد تم استعادة تأهيل الشريحة، وتم إرسال المعلومات وجاري ظهور علامات التحسن في حالة مريم الصحية.

تنهد زلينسكي قائلًا:

– أحسنت، أحسنت، الأمر الآن أصبح في مساره الصحيح، راقب كل شيء جيدًا، وأرسل إليَّ كل التطورات الحادثة، بالتأكيد ديفيد لن يدع الأمر يمر بسلام.

وحينها نطق الجهاز اللا سلكي الموضوع في بنطال زلينسكي: «اجتماع طارئ للضرورة يرجى حضور جميع أعضاء المنظمة».

خرج زلينسكي بعد أن اطمئن على سير خطته كما يريد متجهًا إلى مقر المنظمة، وعلى طاولة الاجتماعات المستديرة جلس ديفيد يمعن النظر في عيون كل منهم ساندًا رأسه على ظهر

كرسيه يفكر: أي منهم خائن لقسم المنظمة)سنعود سادة العالم ونمتلك خزائن الأرض ويصبح الكل عندنا عبيد(،

وفجأة صاح وقد ظهرت الشاشات البلازمية المنبثقة أمام كل الأعضاء:

- كيف حدث هذا هناك تغيير في إعدادات شريحة مريم، لقد أصدرتُ أمر الإنهاء وما زالت الشريحة تعمل بل وخرجت خارج نطاق سيطرتنا.

وأطلقها دايفيد مُعلنًا شكوكه:

انتبه الجميع وأصدروا علامات تعجبهم؛ لأوَّل مرة في تاريخ تلك المنظمة يحدث هذا التخريب.

- بالتأكيد بيننا خائن.

تجهم وجه الجميع وعلت الهمهمات المستنكرة:

- كيف لك أن تتهمنا ونحن من وضعنا الخطة وطرق التنفيذ؟

وبعد أن انتهى الجميع من استنكاره، توجه زلينسكي لضغط زر على الشاشة المنبثقة أمامه، لتظهر شاشة كبيرة ثلاثية الأبعاد في وسط الطاولة تظهر غواصة في أعماق المحيط:

- لماذا نحن ؟! ربما هو!

صمت الجميع وقد بدا على وجهوهم استحسان الفكرة، وربما تشبثوا بها لإبعاد التهمة عنهم، ولكن ديفيد أيضًا استحسن التخلص من عدوه اللدود عبد الله، ذاك العربي المقيت.

قرطبة

كانت الأخبار قد بدأت تتوالى على عبد الرحمن بن الحكم في قرطبة بوصول النورمان إلى مدينة أشبونة، فأرسل على عجل إلى عبد الله بن كليب ومحمد بن رستم من أجل التحرك بقوتهم، لنجدة إخوانهم على الحدود، ولكنه لم يكد يفعل حتى فوجئ باقتحام الفايكنج لإشبيلية وتدمير المدينة، فاستدعى حاجبه على عجل؛ وقف الحاجب عيسى بن شهيد أمام الأمير عبد الرحمن بن الحكم وهو يحاول أن يتجنب غضبه البادي من عينيه عندما صرخ فيه:

- كيف استطاع المجوس الوصول إلى شبيلية والعثث فيها فسادا بهذا الشكل يا عيسى؟.. ألا تستطيع أن تؤمن داخل دولتك جيدًّا، فكيف بأطرافها؟!

حاول عيسى أن يدافع عما حدث فقال:

- يا مولاي إننا نؤمن الأطراف جيدًا، ولكن إشبيلية كما تعلم تقع على نهر الوادي الكبير ولم يسبق أن هاجم أحد من النهر لضيقه.

ضرب عبد الرحمن كرسي عرشه بقبضة يده، ثم وقف قائلًا:

– وها هم فعلوا، لقد عبره هؤلاء المجوس بثمانين سفينة، هؤلاء الرعاع الذين يسعون في الأرض فسادًا تجرؤوا على إمارتنا، يريدون أن يلتهموا الأندلس قطعة قطعة، من سيدفع ثمن هذه الغفلة؟ ومن سيدفع ثمن دماء المسلمين التي أريقت؟ والنساء التي طال ألمها؟! من سيدفع كرامة أهلينا التي دنست؟!

طأطأ عيسى بن شهيد رأسه، ثم قال:

– أنا أعترف بخطئي يا سيدي، وأتحمل كل ما تصدره بشأني حتى لو كان الأمر عزلي من منصبي وقطع رقبتي.

اقترب منه عبد الرحمن، ثم قال بلهجة ساخطة:

– هل تريد أن تفر كما الصغار يا عيسى؟ ما عهدتك هكذا منذ كنت حاجبًا لأبي، لقد أخطأت، ولا بد أن تصلح خطأك، وأدعو الله أن يغفر لك زلتك ويغفر لي دماء الشهداء التي أريقت بغير ذنب.

ثم صمت قليلًا قبل أن يأمره: «جهز جيشًا قويًّا مهما كلف هذا خزينة الدولة، حاصرهم بالمجانيق، واحصل على التعديل الأخير من أوراق شمس الدين، ولا تعد حتى تقضي على هؤلاء الرعاع وبعد أن تعود سيكون حسابك في المجلس.

ضرب عيسى بيده على صدره قائلًا:

- كما تأمر يا سيدي.

وبعد أن مضى عيسى بن شهيد لتجهيز الجيش، استدعى الأمير عبد الرحمن كاتبه وبدأ في كتابة رسائل، وتبعها بوفود يستحث فيها جميع القبائل المجاورة للانضمام إلى جيش المسلمين للقضاء على جيوش المجوس، فلقد رأى الأمير أن هزيمتهم لن تكون إلا بوحدة الصف الإسلامي وتجميع القوى من أجل هدف واحد، حتى لا يكون جيش المسلمين أمامهم

ضعيفًا، وبالفعل استجاب له عدد كبير من المسلمين وعلى رأسهم موسى بن موسى، الذي كان في خلاف مع الأمير عبد الرحمن، ولكنه رأى أن خطر النورمان أشد ضراوة، فحشد قوته وجيشه وانضم تحت راية الأمير عبد الرحمن، وفي أيام قليلة بدأت المدادات تتوالى على الجيش الذي بدأ حصاره للفايكنج في الخامس من أكتوبر عام 844م.

* * *

كانت ريحانة تطبب مريم كما طلبت منها الطبيبة زينب أن تفعل، بعد أن تناولت الدواء شعرت مريم ببعض التحسن، ولكن ما زالت الصورة مشوشة أمامها، تتذكر قتل أمها لأبيها في معمل كبير وسخطها الشديد عليها مما دفعها نحو...

لا تتذكر شيئًا آخر، حاولت عصر ذهنها فلقطت الميقاتة آلة التنقل عبر الزمن، هل من المعقول أن تكون استخدمت هذه الآلة؟! هذا يفسر سر اختلاف الوجوه التي تتعامل معها.

لاحظت ريحانة صراعها فقالت بود:

- لا ترهقي نفسك، ستكونين بخير في خلال أيام قليلة.

تجاهلت مريم نصيحتها، وسألت:

- في أي الأزمان نحن ؟..

لم يبد أن الفتاة قد فهمت ما تقصد مريم، صمتت لثوانٍ ثم أعزت سؤالها إلى تلك الحالة التي فيها ذاكرتها، فأجابت بود:

- نحن في زمن الأمير عبد الرحمن.

- عبد الرحمن بن معاوية ؟

سألت مريم وقد بدأت صورة عبد الرحمن الداخل تتجسد أمامها[1].

ردت ريحانة:

---

(1) العدد الأول من السلسلة (الميقاتة).

- لا، إنه مولاي عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية أو عبد الرحمن الثاني، حفيد مولاي عبد الرحمن بن معاوية.

كانت الفتاة عازمة على السكوت بعد تلك المعلومة، ولكن عيون مريم الحائرة دفعتها لتكمل، لعل الفتاة التي أمامها تستعيد جزءًا من ذاكرتها:

- كما حكت لي جدتي مولاي عبد الرحمن بن معاوية استطاع استكمال فتح الأندلس واستمر حكمه زهاء ثلاثة عقود، وتولى الحكم من بعده هشام ابنه، وقد كان رجلًا عادلًا، حاول السير على نهج أبيه، ومن بعده ولده الحكم بن هشام، وقد كان رجلًا خيرًا كسابقيه، ولكن دولتنا أصبحت فتية قوية يخشاها القاصي والداني في عهد مولاي عبد الرحمن بن الحكم، لقد اهتم بأشياء كثيرة في الداخل، واستطاع بناء جيش قوي للجهاد في الخارج، تقول جدتي إنها لم تجرب رغد العيش في حياتها كما اختبرته في أيام مولاي عبد الرحمن الثاني، وتقول أيضًا إننا نعيش في كنف سيدي عبد الرحمن أيام عرس حقيقية.

استوضحت مريم:

- هل جدتك من علية القوم؟

- أبدًا، إننا من عامة الشعب، ولكن مولاي الأمير عرف كيف يدير الشئون المالية والتجارية كما ينبغي، فعاد ذلك علينا في الداخل، حتى إن الموالي سمح لهم بتلقي العلم، وبرز منهم علماء ومهندسون ذوو شأن، ساهموا في نهضة دولتنا دون تفرقة بين أيٍّ من أبنائها.

اعترضت مريم:

- لا تقنعيني أنه حاكم مثالي إلى هذا الحد.

- ومن قال إن هناك شخصًا مثاليًّا في هذا العالم؛ كلنا ندندن لنصل إلى مبتغانا يا مريم، ولكن الرشيد من يكون مبتغاه رضوان الله ﷻ.

قلبت مريم شفتيها بعدم اقتناع، فشعرت ريحانة أنها لم تكف الأمير حقه فزادت:

- أتعلمين، بعد أن تولى مولاي الحكم بشهر تقريبًا حدثت اضطرابات وتمردات، ولكن مولاي الأمير استطلاع التغلب عليها بسبب حنكته العسكرية والسياسية، ولكن ما زاد الطين بلة أنه بعدها بعام واحد هاجمت أسراب الجراد الزرع فأكلت الأخضر واليابس، فحدث قحط ومجاعة شديدة، حتى إن مكيال القمح قد وصل إلى أسعار خيالية لا يقدر عليها سوى الأغنياء.

صمتت ريحانة قليلًا لتدع لمريم فرصة للاستيعاب، ثم سألت سؤالًا تستفز به ذهنها:

- أتدرين ماذا فعل مولاي الأمير ؟

لم تنتظر ريحانة إجابتها فاندفعت تكمل بحماس:

- لقد فتح مولاي الأمير خزائنه الشخصية وتكفل بإطعام كل الفقراء والمساكين في قرطبة، فلم يبق فيها طول العام جائع.

همت مريم أن تجادل، ولكن قطع حديثهما صوت زينب وهي تدخل متسائلة ببشاشتها المعهودة:

- كيف حال فتاتنا اليوم ؟

كانت مريم تفضل الحديث مع زينب عن ريحانة، لذلك أقبلت عليها تجيب:

- أفضل، ولكن ما زلت لا أتذكر إلا صورًا قليلة، أحاول أن أستجمع منها شيئًا ولكنني أفشل في كل مرة.

- إن شاء الله ستتحسنين مع الوقت وسيذهب هذا الذهان، فأنت ما زلت شابة قوية.

فركت مريم يديها ثم قالت بتوتر:

- أتمنى ذلك.

- هناك مقابلة لا بد أن تجريها، ربما تساعدك.

نظرت إليها مريم متسائلة فأكملت الطبيبة:

- إنه طارق، ذاك الشاب الذي جاء معك إلى هنا إنه يريد أن يراك ويجري حديثًا معك.

وبعد تردد حسمت مريم أمرها قائلة:

- حسنًا سأقابله.

* * *

- تلك التصاميم التي أخذها الجند من منزل أستاذي شمس الدين مزيفة أنا واثق من ذلك، لقد رأيت التصاميم الأصلية.

قالها سالم بغضب واضح على ملامحه بينما يقف السهم أمامه ينظر إلى الأفق شاردًا يفكر في كلامه، انتبه على صوت طارق الذي اقترب من سالم مربتًا على كتفه قائلًا:

- اهدأ قليلًا وأخبرني من أين لك بكل هذه الثقة بأن التصاميم مزورة؟

- لأني أعرف خط سيدي شمس الدين، وقد سبق ورأيت الأوراق الأصلية كما أني رأيتهم وهم يسرقون التصاميم تلك الليلة من بيت سيدي.

- لاشك أنهم القتلة...

قالها السهم ليلتفت إليه الاثنين قبل أن يقول سالم وقد عادت الدموع تترقرق بعينيه: «لا أعرف من هذا الذي سولت له نفسه قتله، ولم فعلوا به ذلك؟».

أجابه طارق:

- ربما من أجل سرقة التصاميم.

- لكنهم لم يسرقوها بل استبدلوها بأخرى مزيفة.

تحرك السهم قليلًا ولا يزال يفكر في الأمر، لم يكن يخفى عليه الغرض الحقيقي من تغيير التصاميم، فعدوهم لا يريد فقط سرقة التصميم الأصلي للمنجنيق، بل هدفه جعلهم يصنعون واحدًا

بمواصفات غير تلك التي وضعها شمس الدين حتى يكون أثره عكس المرجو منه، توقف وعاد ينظر إلى مرافقيه قائلًا بحزم: «يجب أن نصل إلى الديوان ونمنع الكارثة قبل وقوعها».

– قبل أن نفكر في الوصول إلى الأمير عبد الرحمن، يجب أن نفكر أنه ربما لن يصدقنا أحد، فنحن لا نملك دليلًا واحدًا على صدق ما نقول.

– معك حق، أجاب السهم وقد تهدلت كتفاه وزم شفتيه بإحباط، لكنه فجأة التفت نحو سالم الذي صرخ بحماس: «أنا أعرف شخصًا سوف يصدقني بكل تأكيد، ولا أظن أمر كشف تزييف التصاميم يستعصي عليه».

نظر إليه الاثنان بتساؤل ليجيب: «سيدي عبد الله بن سنان[1]، لقد قابلته مرارًا مع سيدي شمس الدين، كان يأخذ عنه العلم، ولطالما رأيتهما يتبادلان المناقشات حول بعض القضايا العلمية المستعصية».

(1) عبد الله بن سنان أحد الموالي الشاميين الذين تلقوا العلم، وأصبح مهندسًا فذًّا مقربًا من عبد الرحمن الأوسط، ومن أهم إسهاماته بناء سور مدينة إشبيلية الضخم الذي كان آية في التصميم والمعمار حتى اليوم.

انطلق طارق والسهم خلف سالم يجتازون شوارع قرطبة الهادئة إلا من صوت خطواتهم المتعجلة التي تصدح بين جدران المنازل، حتى وصلوا إلى أحد الأحياء البسيطة ليشير سالم إلى بيت متواضع قائلًا:

- هذا هو البيت.

توقفوا يتبادلون النظرات القلقة، زفر سالم مخرجًا توتره مع أنفاسه الحارقة، ثم تقدم بثبات نحو الباب الخشبي المزخرف ليطرقه بحزم، لحظات مرت عليهم طويلة قبل أن يفتح الباب على مصراعيه ليظهر من خلفه رجل متوسط الطول ذو لحية قصيرة ومهذبة يرتدي جلبابًا بسيطًا رمادي اللون وشعر مجعد أسود؛ نظر إليهم باستغراب قبل أن يقول:

- من أنتم؟

تقدم سالم نحوه بسرعة ليقول بصوت متهدج:

- ألا تذكرني يا سيد عبد الله؟! أنا سالم تلميذ الشيخ شمس الدين.

نظر إليه عبد الله بصمت وهو يحاول أن يتذكر هذا الوجه الصغير قبل أن يبتسم له بود قائلًا: «أجل، أظنني أتذكرك رأيتك أكثر من مرة في بيته».

تراجع إلى الخلف وأشار إليهما ليدخلا المنزل وهو يقول: «تفضلا بالدخول، مرحبًا بكما».

كان البيت بسيطًا تفوح منه رائحة الورق والكتب، دخلوا إلى إحدى الغرف التي غطيت جدرانها بعدد من الأرفف الخشبية المحملة بعشرات الكتب والمخطوطات في كل المجالات العلمية من هندسة ورياضيات وفلسفة، في منتصف الغرفة طاولة مستطيلة مغطاة بالورق إلى جانب أدوات هندسية، اقترب منها السهم يتفحصها بانبهار ليجدها مجموعة

من التصاميم الهندسية بعضها مكتمل والبعض الآخر قيد العمل، حاول التعرف على الأشكال المرسومة، وبدا له أنها تخص آلات حربية وأخرى لمبانٍ سكنية، شعر بإعجاب شديد تجاه هذا الرجل الذي يبدو أنه مهتم بالعديد من العلوم المختلفة؛ انتبه من شروده على صوت سالم الذي بدأ يحكي لعبد الله ما حدث لأستاذه شمس الدين قبل أن ينهي كلامه قائلًا:

– لقد أخذ الجند تصميم المنجنيق الذي اعتقدوا أنه لسيدي شمس الدين، لكن الحقيقة أنهم أخذوا تصميمًا مزيفًا.

صمت عبد الله وقد اكتست ملامحه علامات الحزن والقلق؛ تحرك بخطوات بطيئة نحو الطاولة ليتكئ عليها بكفيه وهو يقول:

– لا حول ولا قوة إلا بالله؛ لم أكن أتخيل أبدًا أن يحدث هذا للشيخ شمس الدين، لقد كان رجلًا طيبًا وعطوفًا على الجميع.

أومأ طارق برأسه موافقًا على كلماته قبل أن يقول بجدية: «الأمر غاية في الخطورة يا سيد عبد الله، هؤلاء المجرمين لم يقتلوا فقط الشيخ لكنهم بدلوا تصميم المنجنيق بآخر مزيف، ولو عمل مولاي الأمير على تنفيذه بالتأكيد سوف يتسبب في كارثة داخل الجيش».

– هل أنتما واثقان من هذا الأمر؟

– أنا متأكد من ذلك لا يمكن أن أخطئ عملًا لشيخي أبدًا...

قالها سالم بحزم ليجيبه عبد الله وهو يدير بصره بينهما جميعًا: «الأمر ليس بهذه البساطة التي تعتقدونها، من المستحيل أن يتجرأ أحد على فعلة كهذه».

اندفع سالم قائلًا: «أنا لا أكذب يا سيدي، لقد رأيتهم وهم يأخذون التصاميم من صندوق سيدي شمس الدين أنا واثق من ذلك».

رفع السهم رأسه ينظر إلى ملامح عبد الله الهادئة والتي يبدو عليها عدم التصديق فجذب سالم من ذراعه وهو يقول: «أتمنى يا سيدي أن تحاول التأكد من الأمر بنفسك قبل أن يبدأ مولاي عبد الرحمن في العمل على تنفيذ التصميم».

* * *

كانت مريم تشعر بألم شديد في معصمها حاولت إزالة الأسورة التي تحيط به لكن دون جدوى، لم يكن ألم معصمها هو فقط ما يضايقها ولكن تلك الصور المتكررة التي تتوالى داخل عقلها وتزيد من تشويشها، انتبهت على صوت أزيز الباب الذي فتح لتدخل منه ريحانة بابتسامتها الودودة وهي تقول:

- لقد أحضرت لك بعض الطعام، يجب أن تأكلي جيدًا لتستعيدي صحتك في أسرع وقت.

ابتسمت لها مريم بدورها وهي تشكرها قبل أن تتقدم نحو الطاولة الصغيرة التي وضعت عليها صينية الطعام، لكن وقبل أن تجلس سألتها باهتمام:

– أين هو طارق؟! لقد أخبرتني الطبيبة زينب أنه يريد لقائي لكنه لم يأتِ حتى الآن.

– إنه ليس هنا، حالما يعود إلى البيت سوف أخبره، بالتأكيد أنك تريدين مقابلته والحديث إليه.

أومأت مريم برأسها وجلست أمام الطاولة وهي تتذكر عندما رأته أول مرة بعد استعادتها لوعيها، ما إن لمحته حتى قفزت إلى ذهنها صورته وهو يتلقى ضربة سيفها الذي انغرز

في صدره[1] لتنتابها حالة من الهياج الشديد، فأخذت تصرخ فيه بفزع قبل أن تطلب منه الطبيبة زينب مغادرة الغرفة وهي تحاول تهدئتها قبل أن يظلم الكون في عينيها وتسقط فاقدة للوعي، عادت من شرودها على صوت ريحانة التي تسألها بفضول:

– هل حقًّا لا تتذكرين أن ذلك الشاب هو زوجك؟

رفعت مريم عينيها تنظر إليها بشرود، ثم حركت رأسها نفيًا وهي تقول:

(1) العدد الأول (الميقاتة).

- لا أتذكر شيئًا، لهذا أريد الحديث إليه، ربما يساعدني على التخلص من هذه الحيرة التي أعيشها.

جلست ريحانة بجانبها وأحاطت كتفيها بذراعيها قائلة بمواساة: «اطمئني، لن يطول مرضك كثيرًا، أنا واثقة من ذلك، هيا الآن سأتركك لتناول طعامك دون إزعاج».

قامت من مكانها متوجهة نحو الباب، لكنها توقفت قبل أن تخرج والتفتت إليها قائلة وهي تغمز لها بمشاكسة:

- أظن أنه زوجك بالفعل ويحبك كثيرًا، لو أنك رأيتِ مقدار خوفه عليك لتأكدتِ من الأمر بسهولة.

غادرت ريحانة تاركة ابتسامة هازئة مرسومة على شفتي مريم، ربما لا تزال الأمور غير واضحة في رأسها، لكنها بالتأكيد تعرف أنها وطارق ليسا على نفس الخط أبدًا، لكن شعورًا خفيًّا تملكها جعل نبضات قلبها تتغير وهي تستعيد كلمات ريحانة التي تتردد في رأسها «لو رأيتِ مدى خوفه عليك»، هل هو حقًّا خائف عليها، أم لأنها فقط الطريق الذي سوف يمكنه من العودة إلى زمنه، عند هذه النقطة انتفضت مريم واقفة وقد تذكرت شيئًا هامًّا «الميقاتة».

* * *

طرقات خفيفة على باب الغرفة أخرجت مريم من شرودها وهي جالسة أمام النافذة تتطلع إلى بعض الطيور التي كانت تحلق في السماء، التفتت نحو الباب الذي فتح ببطء لتطل من خلفه ريحانة بابتسامتها الودودة والتي تقدمت لتقترت من مريم لتقول لها بصوت مشاكس:

- إنه بالخارج ينتظر الإذن لرؤيتك.

تغضن جبين مريم باستغراب لتطلق ريحانة ضحكة متسلية:

- من عساه يكون غير زوجك؟

زفرت مريم بغضب مفتعل وهي تجيبها: «لا تقولي زوجي فأنا لستُ واثقة من ذلك».

- حسنًا عزيزتي، يمكنك أن تتحدثي إليه حتى تتأكدي من علاقته بك.

لم تنتظر سماع ردها وانطلقت بسرعة إلى خارج الغرفة، وما هي إلا لحظات حتى دخل طارق واتجه ليقف أمامها، ابتسم بارتياح وهو ينظر إليها قائلًا:

- تبدين اليوم أفضل حالًا، حمدًا لله على سلامتك.

- لم أخبرتهم أنك زوجي؟

- يبدو أنك بدأتِ في استعادة عافيتك...

قالها مازحًا لتجيبه مريم بغضب: «أعلم أنك لست زوجي، أنا متأكدة من ذلك، حتى وإن كنت ما زلتُ لا أتذكر ما حدث معي».

- حسنًا، اهدئي قليلًا، نحن بالفعل لسنا متزوجين، لكن لم أجد حجة أخرى لأبرر وجودنا معًا عندما أحضرتك إلى هنا.

وقفت مريم فجأة وأخذت تتحرك بعصبية داخل الغرفة وهي تقول:

- أنا وأنت لسنا من هذا الزمن وأنا كنتُ أمتلك الميقاتة التي سوف تمكننا من العودة إلى زمننا، ولكن ما الذي حدث؟ وكيف وصلتُ إلى هنا؟ ومن أنا تحديدًا؟

أوقف طارق سيل أسئلتها و هو يمسكها من ذراعيها ويدفعها لتعود إلى الجلوس من جديد قبل أن يجلس بدوره أمامها قائلًا:

- سوف أخبرك بكل ما حدث منذ التقينا أول مرة وحتى وصولنا إلى هنا.

أومأت برأسها موافقة واستمعت إلى طارق الذي أخذ يحكي لها تفاصيل كل ما جرى معهما، وهي تحاول أن تتذكر بدورها المشاهد التي يرسمها لها، كانت بعض الصور تتوالى في رأسها مع كلماته فتزيدها تشويشًا، أنهى حديثه قائلًا:

– هذا كل ما حدث، كنا نعتقد أن انتقالنا إلى زمن آخر سيعيد إليك عافيتك كما حدث معي سابقًا لكن ذلك لم يحدث، السهم يقول إن هناك شيئًا غريبًا بجسدك لا نعرف ما هو، لهذا أحضرناك إلى بيت الطبيبة زينب ويبدو أن علاجها أعطى النتائج المرجوة.

نظرت إليه بحيرة لتسأله: «ولكن إذا كنا جميعًا مسافرين عبر الزمن، وكما تقول من المفترض بنا أن نكون معًا، لكن ما تقوله إنني كنتُ أسعى إلى إفساد ما تقومان به، لماذا؟ أنا لا أفهم شيئًا.. رأسي يكاد ينفجر».

– لا أعرف.

– ألا تعرف أيضًا من أكون؟ هل أنا وأنت أتينا من زمن واحد ومكان واحد؟

نظر إليها طارق بإشفاق قائلًا: لا ترهقي نفسك بالتفكير سوف تتذكرين كل شيء بالتأكيد». ابتسم... وهو يكمل حديثه: «ثم تعودين إلى معاداتنا مجددًا».

– لماذا تريدان إنقاذي إذَنْ؟

– لأننا فريق واحد ولا يمكن أن نخرج من هذه المتاهة إلا ونحن معًا.

* * *

كان الحاجب عيسى بن شهيد يجلس في خيمته يتفحص خريطة إشبيلية يحاول مع محمد بن رستم إيجاد ثغرة لاستعادة المدينة ويدرسا أهم المستجدات العسكرية التي حدثت في اليومين السابقين، أصوات الضجيج في الخارج تدل على أن الجنود والعمال يعملون بجد في بناء شيء، ما أشار عيسى إلى الخريطة الموضوعة أمامهما قائلًا:

– يجب أن نسرع يا محمد في القضاء على هؤلاء الرعاع وطردهم شر طردة، لا أرى تقدمًا ملحوظًا في الأيام الخمسة التي نصبنا فيها معسكرنا، يجب أن نجهز عليهم بكل قوة.

– سيكون قريبًا يا مولاي إن شاء الله، الجنود بكل جد يحاولون الانتهاء من بناء المنجنيق بالتصميم الجديد، وأعتقد أنه سيحدث إرباكًا للمجوس، وسيقلب موازين المعركة لصالحنا بإذن الله.

– نعم أعلم، ولكني أريد إحداث بلبلة في صفوف العدو حتى ننتهي من بنائنا، جهز جند بني قيس سيكلفون بمهمة عاجلة.

وقبل أن يجيبه ابن رستم دخل جندي مسرعًا وعليه علامات الحماس أنسته آداب الاستئذان قائلًا وهو يلهث:

– سيدي القائد لقد انتهينا من بناء المنجنيق، وكبير المهندسين يطلب إذنكم في رؤيته.

تهللت أسارير الرجلين وتركا خيمة القيادة متجهين إلى حيث المنجنيق. ما إن رآهما كبير المهندسين إلا واقترب منهما قائلًا والتوتر يكسو وجهه:

– هناك خبر مهم يا سيدي.

شعر عيسى بتوتره فقال يستحثه:

– تكلم بسرعة، ما الأمر يا إسحاق؟

ابتلع إسحاق ريقه ثم قال: المنجنيق، سيدي... لم نتمكن من إنهائه لقد تعطل البناء. رفع ابن رستم حاجبه غاضبًا وهو يسمع حاجب الدولة يقول بصرامة:

-ماذا تعني بتعطل؟ هل الجنود نائمون؟ أم أنكم قررتم صنع لعبة خشبية بدلًا من منجنيق؟ ألا تدرك أهمية الوقت بالنسبة لنا؟

جفف إسحاق عرقه بتوتر ثم شرح:

- لا يا سيدي... العوارض الخشبية لم تكن بالقوة الكافية، والرافعات تعطلت. حاولنا استخدام الحبال الجديدة، لكن... لم تتحمل الوزن وعندما زودنا عوارض خشبية ثقيلة لم يصل المنجنيق إلى مداه المطلوب بل كان أقصر من المدى المعتاد للمنجنيق القديم، لقد أصيب أحد العمال إصابة طفيفة، الحمد لله أننا جربناه هنا وإلا كان سيحدث إصابات بالغة في جنودنا لو جربناه في المعركة.

توقف هنيهة ثم قال: «وكل هذا يقودنا إلى نتيجة واحدة».

- ما هي؟

- إن التصميم الجديد غير دقيق؟

اندفع ابن رستم هذه المرة يقول بخشونة:

- أتشكك في تصميم شمس الدين يا إسحاق؟

- كلا يا سيدي إنه معلمنا جميعًا، ولكني جربت كل الحيل وأشرفت على صنعه قطعة قطعة بنفسي لعلمي بأهميته بالنسبة إلى المعركة الدائرة.

عقد حاجب الدولة حاجبيه مفكرًا لدقيقة كاملة ثم قال:

- حسنًا يا إسحاق، لا بأس، لقد بذلتم جهدكم، عد إلى التصميم القديم وابنِ منجنيقًا قويًّا في أسرع وقت.

- سيدي، ليس لدينا الوقت الكافي.

قالها ابن رستم والضيق بادٍ على وجهه فزفر الحاجب ثم قال:

- أعلم هذا، ولكن هذا هو الحل الأمثل حتى نكتشف الخائن.

وقبل أن يرد ابن رستم أمره قائلًا:

- احضر لي تصميمات شمس الدين واتبعني إلى خيمة القيادة.

قالها ثم تركه وذهب في خطوات واسعة وسؤال واحد يشغل رأسه من الخائن؟

* * *

بتفكير عميق وقف عيسى بن شهيد يولي ظهره لباب خيمة القيادة وهو يتفحص الخريطة التي أمامه على الجدار الأبيض، لم تكن ملامح الخريطة واضحة أمام عينيه، فقد كان باله مشغولًا بالخائن.

استأذن ابن رستم في الدخول فأذن له، ثم التفت إليه، فقال ابن رستم باحترام وهو يناوله أوراقًا في يده:

- هذه هي رسومات العالم شمس الدين رحمه الله.

تفحص الحاجب الرسومات ثم قال:

- لا أرى فيها شيئًا مريبًا.

- سمعتك تتحدث عن خائن يا سيدي.

- نعم هناك خائن هل تظن أن موت الحمام الزاجل ليلة الاقتحام قد حدث قدرًا؟ أم تظن أن معرفة المجوس للباب السري للمدينة جاء قدرًا؟ وهل تظن أيضًا أن فشل تصميم المنجنيق قد جاء قدرًا؟

- هل ترى أن الرسومات غير صحيحة يا سيدي؟

هز الحاجب رأسه ثم قال:

- لا أدري، ولكن شمس الدين لا يخطئ خطأ كهذا، إنه عبقري.

صمت برهه ثم أضاف:

- وكذلك إسحاق، إنه لم يخطئ أبدًا في تنفيذ تصميم من قبل.

- إذَنْ من سيحسم الأمر يا سيدي؟

- ليس نحن يا محمد.

- من إذَنْ؟

تحدث عيسى كأنه لم يسمعه:

- أحضر لي أسرع فارس لديك في المعسكر، أريده أن يذهب بهذه التصاميم إلى عبد الله بن سنان، سيحسم هو الأمر، ولكن أريده أن يقطع المسافة في أسرع وقت ممكن ويعود إلينا بالخبر اليقين، وحتى يأتي إلينا الخبر سنكتشف نحن الخائن.

قال جملته الأخيرة بعزم وتصميم شديدين.

* * *

الغواصة

نبض قلبها بشدة وانهالت الدموع من عينيها التي تأبى أن تغمض، فيهدأ انبثاق الضوء من العنصر الخامل أمامها في اللوحة أو يختفي، ومعنى اختفائه انتهاء مهمته وضياعه أو حتى موته في زمن ليس زمنه وأرض ليست بأرضه، سيعيش هذا العنصر غريبًا ويموت غريبًا.

تتنهد كلما سطع نوره من جديد، وتنظر إلى عبد الله الذي يتأمل ملامحها وقد تذكر آخر لقاء بينهما وهو يلقي عليها اتهامات كاذبة بالخيانة وهي تبكي ولم تردد إلا بجملة واحدة: «لست أنا، لست أنا لم أفعل هذا».

ما زال قلبها رقيقًا، ظل يهرب لسنوات ويبتعد ليس عن أي شيء آخر، ولكن الحقيقة التي لا يعرفها غيره أنه يهرب منها ومن إحساسه بالذنب مما فعله فيها في الماضي.

ولكن انبثاق العنصر من جديد وسطوع نوره طمأنهم وجعلها تنتفض فرحة مهللة، حتى إنها لم تدرك أنها اقتربت منه وكادت أن تحضنه، ثم ابتعدت بسرعة، وكأن سنوات عذابها بعيدًا عنه تلاشت في ثانية، ماسحة جبينها بأصبعها الأيسر تحاول إحياء شخصيتها القوية التي رسمتها منذ سنوات والتي تلاشت بلحظة وهي بجانبه.

فابتسم عبد الله وهو يزيد من إحراجها ويقول:

- ما زلتِ كما كنتِ يا ميسان قوية وعاقلة متحكمة في كل شيء حتى اندفاعاتك.

لم تنظر له واتجهت إلى اللوحة وقالت:

- هذا يعني أنهم جميعًا بخير صحيح؟!

اتجه عبد الله ليجاورها الوقوف أمام اللوحة:

- نعم؛ هذا يعني أن المنظمة فشلت في تصفية أحد العناصر واستعاد طاقته.

- تعتقد أنهم ربما يعيدون محاولة التخلص منه؟

أومأ عبد الله برأسه وهو يتجه إلى لوحة التحكم في الغواصة والتي تظهر بفضل مجسات معينة تراقب المحيط الخارجي وظهور أي تهديد حولها، فقد لاحظ وجود ثلاث دوائر حمراء تقترب منها:

- بالتأكيد سيحاولون التخلص منه أو تجنيد من يراقبه.

ابتعدت ميسان عن اللوحة، أو بمعنى أصح بعيدًا عنه. ما زال قلبها ينبض، ولكنها لا تريد الإفصاح عن إيقاظ ما تم إخماده بداخلها منذ زمن وقالت:

- لا بد أن نعرف لكي يتم إنقاذهم، هل هناك طريقة لهذا؟

لم يرد عبد الله، فقد استطاع بواسطة أجهزة المراقبة رصد أجسام متحركة تقترب بسرعة كبيرة تجاه الغواصة.

ساد الهدوء لثوانٍ والذي قطعه صوت ارتطام قدم شيا الحديدية بالأرض:

- سيدي، سيدي.

أشار إليها بإصبعه لتفهم هي أن عليها سرعة تنفيذ خطة الهروب.

اتجهت شيا إلى ميسان تدعوها لمغادرة الغرفة والتوجه إلى غرفتها، ولكنها تعلم وجهه جيدًا، إن هناك خطرًا فصل وجدان عبد الله عمن حوله.

- عبد الله، ماذا هناك؟ ماذا يحدث؟

تنهد عبد الله وخرج عن صمته بعد أن اتخذ القرار وتوجه لها وبنفس العينين البائستين اعتذر لها:

- سامحيني يا ميسان، سيأتي يوم وتعرفين الحقيقة.

- أية حقيقة؟

ولم تكمل جملتها حتى انطلق هو إلى غرفة التحكم، وفهمت شيا ماذا سيفعل، وعندها أسرعت إلى الكبس على زر الاتصال لتبقى على اتصال دائم به مهما ابتعد، وميسان ما زالت حبيسة تلك النظرة التي لم تنسَها، وتلك الجملة التي سمعتها من قبل وكأن الزمان يعيد نفسه:

- سامحيني يا ميسان، سيأتي يوم وتعرفين الحقيقة.

ولكن حينها كان قد ترك لها مجالًا لانتقاده، للرد عليه، لم يختفِ كما حدث الآن، كان الأمر فيصلًا في حياتها، صرخت حينها في وجهه وقالت:

- لا تفعل، لن تكون عاقبة هذا الأمر خيرًا، صدقني سنجد الدعم المناسب لإكمال المشروع، هذا مجهودنا منذ سنوات ولن نتخلى عنه لمجرد أن المنظمة وعدتك بتبنيها، هذا المشروع أن تعلم مخاطر هذا القرار ليس عليك بل على التاريخ كله.

وعندما علمت أنه بالفعل قد باع الجزء الخاص به ووعدهم بمحاولة إقناعها بتسليم الجزء الخاص بها من تجارب فهربت بما تبقى وأبت أن تسلم تاريخها لمنظمة لا تعرف لها تاريخًا.

أما الآن فقد اختفى اتجهت إلى شاشة التحكم، لم تنسَ دراستها ولا تجاربها، ما زالت تفهم شيئًا من التحكم في أجهزة القيادة.

فهمت الأمر ولكن بعد فوات الأوان.

قد استقر عبد الله في كبسولة صغيرة ملحقة بالغواصة مخصصة لفرد واحد، وانطلق وحده بنية تشتيت الهجوم وتغير وجهتهم ليتبعوه هو، وقد أقسم ألا ينالها بسببه مكروه أبدًا وسيضحى دائمًا لتكون هي في أمان.

* * *

تابع الهجوم كلٌّ من زلينسكي وديفيد، كلٌّ من مقره. ولكن توقف كلٌّ منهما، وانتفضا يصرخان كيف هذا، عندما جاءتهما الأخبار:

– سيدي لقد هرب عبد الله بالكبسولة قبل الهجوم على الغواصة، ماذا نفعل؟

انطلق ديفيد يصرخ برئيس العملية:

– لا تدعه حيًّا ونفذ الهجوم على الغواصة، ولا تدع ورقة ولا مستندًا ولا ذاكرة إلا وأتيني بها.

أما زلينسكي فقد سمع بفضل شريحة المراقبة المدسوسة في هاتف ديفيد ماذا ينوي أن يفعل وعلى بنائه فقد أصدر أوامره:

- أنقذوا عبد الله والغواصة.

* * *

قرطبة

كانت المرة الأولى التي تترجل فيها مريم بعد أن شعرت بتحسن، خرجت من دار الضيافة في بيت الطبيبة زينب تتجول في الشوارع الضيقة، تمشي على الحصى كأنها تراها للمرة الأولى، تنظر إلى نوافذ المنازل البيضاء التي يتدلى منها الزرع الأخضر والزهور الملونة، إنها الجنة بالتأكيد، هكذا همست لنفسها وهي تفكر في حديث طارق معها منذ قليل، شرح لها عن الميقاتة ومغامرتهما من قبل، ولكن لم يشر إلى كيف أتت، ولا أين أسرتها، تتمنى أن تتذكر شكل أبيها وأمها، اسميهما، ولا عن السبب الذي يجعلها في مواجهتهما، رغم تأكيده لها أن مصيرهما مرتبط ببعضهم بعضًا، ما زالت ذاكرتها تخونها، ولكنها لن تستسلم، ابتعدت قليلًا لترى في نهاية الطريق أمامها قلعة قديمة مرتفعة على تلة

صغيرة محاطة أسوارها بأشجار الزيتون والبرتقال والياسمين، وتطل بوابتها الكبرى على حقول اللافندر، لا تدري لماذا جذبتها الرائحة، اقتربت منها تنسمت عبيرها، جلست في وسط اللافندر، أغمضت عينيها ثم استلقت بين الحقول، تذكرت بعض اللقطات، ثم بدأت الصورة تتضح، كانت صغيرة في التاسعة أو أصغر.

– أمي، لا أدري لماذا تحرصين كل جمعة على تعتيق البيت كل جمعة بتلك الرئحة.

– ألا تحبين اللافندر؟

– أحبه، ولكن أحب التجديد.

– حسنًا أيتها الشقية جددي في الرائحة طوال الأسبوع كما تشائين، ولكن يوم الجمعة سيكون البيت برائحة اللافندر، إنها الرائحة المحببة لأبيك، كان دائمًا يقول لي أحب تلك الرائحة إنها تذكرنني...

انتفضت مريم فجأة وعادت من صور ذكرياتها بعد أن سمعت صوت السهم الذي كان يقف خلفها مباشرة وهو يقول:

– لم أكن أعرف أنك تحبين اللافندر، إنها زهرتي المفضلة.

التفتت تنظر إليه بحيرة ظهرت واضحة في نظراتها التائهة، لكنها سرعان ما استطاعت السيطرة على مشاعر الحنين التي سيطرت عليها لتسأله بجمود:

– أنت تعرف من أكون، أليس كذلك؟

– كل ما أعرفه أننا يجب أن ننهي المهام التي جئنا من أجلها قبل أن نصل إلى نهاية الطريق ويعود كل منا إلى عالمه.

– وهل المهمة التي جئتُ من أجلها أنا، هي نفسها مهمتكم؟

ابتسم السهم بهدوء وقد أدرك ما تفكر به مريم وذلك الصراع الذي يدور بعقلها منذ أن تشوشت ذاكرتها، هو حتى الآن لا يعلم إن كان نجح في تخليصها من سيطرة المنظمة بشكل نهائي أم لا، لكنه واثق أنها على الأقل الآن مترددة عكس ما كانت عليه من قبل، اقترب منها وهو يأخذ نفسًا عميقًا يستجلب بها تلك الرائحة التي تبعث في قلبه أيضًا حنينًا إلى جدته، قبل أن يقول:

– عندما خضتُ رحلتي عبر الزمن كنت أعرف أنكما أنتِ وطارق ستكونان معي لننقذ تاريخنا من التزييف الذي يسعى أعداؤنا إلى تنفيذه، لكن ومنذ لقائنا اكتشفتُ أنك في الصف الثاني..

قاطعته بسرعة: «ماذا تقصد بالصف الثاني؟».

- أقصد أن المنظمة نجحت في تجنيدك.

تغيرت ملامح مريم وهي تنظر إليه بتحفز: «أنت تكذب، وصديقك أيضًا يكذب، لا يمكن أبدًا أن أكون بتلك الخسة التي تريدان إقناعي بها».

- من قال ذلك؟.. لكنك واقعة تحت تأثير المنظمة إنهم يسيرونك وفق ما يريدون و...

قاطعته مجددًا وقد ارتفع صوتها: «ليس صحيحًا».

التفتت توليه ظهرها وقد بدأ جسدها يرتجف، وعادت تشعر بألم في معصمها فمدت يدها بشكل تلقائي تتحسس ذلك السوار الذي يزينه، وقد بدأت تشعر بطرقات قوية تضرب رأسها، لم تستمع لما يمكنه أن يجيبها به، وانطلقت بخطوات سريعة مبتعدة عنه، وهي تعرف إلى أين عليها الذهاب.

* * *

كان حتمًا على عيسى بن شهيد كشف أمر الخائن من بين أهالي إشبيلية، من يعرف ثغورها، ومن قتل الحمام الزاجل ليلة الهجوم الهمجي على المدينة.

وقف أمام خيمته يتطلع إلى السماء المظلمة والمزينة بالنجوم المتلألئة، وهو يحاول أن يربط بين خيوط المعلومات التي تمكن رجاله من جمعها، محاولًا الوصول إلى خطة محكمة يسقط بها ذلك الخائن الذي يشك به، ولم يكن سوى القس ألفونسو الذي كان يستقبل يوميًّا في كنيسته كثيرًا من وفود الغرب، ربما لم يكن ذلك سببًا لشكه به لولا أنه لاحظ أنه لم يبدِ أي تعاون لإنقاذ المدينة ومساعدة أهلها، التفت متحركًا نحو طاولة صغيرة في ركن الغرفة وانكب يكتب رسالة بتركيز شديد قبل أن يقوم لاستدعاء أحد رجاله، أغلق الرسالة وأمره بأن يضعها على قدم حمامة زاجلة ويطلقها نحو الكنيسة، لم يكن بالرسالة سوى رجاء شديد موجه إلى القس ألفونسو بسرعة إرسال جديد أخبار استعداد المسلمين للحرب والتي كانت بالفعل تسير جميعها بسرية تامة.

أطلقت الحمامة، ووضعت الكنيسة تحت مراقبة شديدة من رجال عيسى بن شهيد، في انتظار إطلاق الرد الذي إما أن يؤكد شكوكه

وإما أن ينفيها؛ ولم يطل انتظارهم فسرعان ما شاهدوا الحمامة وهي منطلقة من برج الكنيسة، وحينها انطلقت نحوها قذيفة المقلاع لتسقطها وتجعلهم يستحوذون على دليل خيانة ألفونسو.

لم يتعجب عيسى من صحيح شكوكه، فكان يعلم جيدًا أن الفونسو يُكِنُّ الشرَّ للمسلمين، بالرغم من الحرية والسماحة التي أظهرها المسلمون لنصارى الأندلس.

وبعدها أمر القوة أن تقتحم الكنيسة ليس لأي شيء إلا القبض على هذا الخائن وأعطوا الأمان الكامل لجميع النصارى الموجودين داخلها.

لم يستطع ألفونسو إنكار الرسالة، والتي كانت تحوى طرقًا أخرى لاختراق أبواب المدينة وتوسلات كبيرة للإسراع والعودة لتخليصهم من يد المسلمين، وعودة الأندلس ثانية في أيدي الكنيسة وتم القبض عليه.

* * *

الغواصة

حاولت ميسان أن تتذكر كيف تخرج هذه الغواصة من أعماق البحار وتظهرها على السطح، لكي يتعرف عليها حراس الحدود بعد أن علمت بهروب عبد الله ومحاولة الهجوم عليها، ولكن شيا منعتها.

شيا تعلم جيدًا خطر هذا التصرف على سيدها عبد الله، ولكنها انبهرت من براعة ميسان وهي تحاول التأكد من فاعلية أنظمة الدفاع لتحمي نفسها. كان حنقها على عبد الله قد تزايد، كيف له أن يتركها هكذا في عمق البحر ويهرب وهو يعلم بالهجوم، كانت تتوعد بجمل لا تفهمها شيا:

- لن أدعك تخرب حياتي ثانية.
- كل ما حصل لي بسببك.
- لن أستسلم لك.
- سأتركك، ولن أدع لك المجال أنت وكبسولاتك والوحوش.
- اذهب إلى الجحيم.

كادت أن تضغط على زر الاستغاثة بحرس الحدود، ولكن انقطع كل شيء وساد الظلام.

ظلت تصرخ بشيا التي ظلت صامتة بل سقطت أمامها قطع حديدية لا تتحرك:

- ماذا يحدث الآن؟.. يا ربي ساعدني.

لا تعلم أن في الخارج هناك من أسرع بالتمكن من نظام الغواصة الدفاعي، بل وتمكن من إيقاف الدوائر الكهربائية بعد أن تمكنوا من الدخول إلى الغواصة من فتحة الطوارئ.

كان الأكسجين ينخفض، وبدأت ميسان تختنق، هرولت يمينًا ويسارًا حتى سقطت بجانب رفاة شيا، لا تشعر بشيء إلا خيالات ظلت تتحرك من جانبها.

* * *

قرطبة

بخطوات مترددة انطلقت مريم نحو بيت عباس بن فرناس[1]، لم تكن في حاجة إلى السؤال عن مكانه، فقد انطلقت تعبر شوارع قرطبة وكأنها تحفظها عن ظهر قلب حتى وصلت إليه بسهولة كبيرة، كانت تشعر بارتباك شديد وبتوتر وهي لا تعرف ما الذي عليها فعله بالضبط، وقفت أمام البيت وزفرت أنفاسها، ثم طرقت الباب وتراجعت خطوة إلى الخلف منتظرة أن يفتح لها، وما هي إلا ثوانٍ حتى فتح الباب خادم صغير نظر إليها باستغراب لتتقدم نحوه قائلة:

- أريد مقابلة سيدي أبي القاسم.

أومأ لها برأسه، ثم أشار لتتبعه إلى داخل البيت، أخذها إلى إحدى الغرف وطلب منها الانتظار ريثما يذهب لإخبار سيده، ما إن غادر الفتى حتى التفتت تتفحص الغرفة بانبهار شديد، فقد كانت وكأنها

(1) أبو ٱلْقَاسِمْ عَبَّاسْ بْنْ فِرْناسْ بْنْ وَرْدَاسْ اَلتَّاكِرْنِي هو عالم مخترع موسوعي مسلم أندلسي اشتهر بمحاولته الطيران. إضافة إلى كونه شاعرًا وعالمًا في الرياضيات والفلك والكيمياء والهندسة. له عده اختراعات من أشهرها الميقاتة صنع أول قلم حبر في التاريخ واكتشف طريقة تصنيع الزجاج الشفاف من الحجارة وصنع النظارة الطبية وغيرها.

مختبر مصغر، حيث انتشرت العديد من الكتب والمخطوطات على الطاولة وفوق الأرفف الخشبية بينما هناك مجسمات ربما كانت لمشاريع اختراعاته

العلمية التي تعرف مريم عددًا منها. شعرت بغصة خنقتها وهي تفكر في السبب الذي دفعها إلى المجيء إلى هنا، السهم محق في كل كلمة قالها، الآن أدركت ذلك بعدما أملى عليها عقلها أوامر بالتحرك نحو بيت ابن فرناس، لتنطلق دون وعي، لكنها الآن تشعر بالارتباك، كيف يمكنها تنفيذ ما جاءت من أجله، اقتربت من أحد المجسمات تتفحصه بتركيز شديد. كانت عبارة عن مجموعة من الحلقات النحاسية، بعضها قابل للدوران حول محور والمثبتة بطريقة خاصة[1]، ظلت تتأملها بانبهار شديد قبل أن تسمع صوت خطوات تقترب، فالتفتت تنظر نحو الباب الذي أطل منه رجل متوسط الطول، في الستينيات من عمره، بلحية قصيرة تناثرت فيها بعض الشعيرات السوداء المتبقية من شباب قضاه يطارد العلم والمعرفة، يرتدي عباءة

(1) أداة ذات الحلق: من أنواع الإسطرلاب، وهي ساعة فلكية تم اختراعها واستخدامها بطريقة معينة بحيث يتم فهم وإدراك وتقريب ماهية وكيفية حركة الأجرام السماوية.

بسيطة وأنيقة، لكنها تمنحه مظهرًا مهيبًا، ما إن رأته مريم حتى تناست تمامًا سبب مجيئها إلى هنا، اقترب منها وعلى وجهه ابتسامة مرحبة، سرعان ما تحولت إلى الدهشة ما إن سمع سؤال مريم وهي تشير إلى المجسم بجوارها:

- أهذا تصميم أولي للميقاتة؟

تغضن جبينه باستغراب، وقبل أن يتحدث سمع صوت جلبة خارج الغرفة فاستأذن منها ليرى ما الذي يحدث، شعرت مريم بالقلق فتحركت بحذر تسترق السمع، لكنها ما كادت تغادر الغرفة حتى سمعت صرخة مكتومة تلاها صوت ارتطام شديد، ودون تفكير ركضت بسرعة لتجد عباس بن فرناس ساقطًا على الأرض، أسرعت نحوه لترفعه وهو يمسك بصدره وقد بدأت الدماء تتسرب منه، سألته برعب: «ما الذي حدث؟ هل أنت بخير؟».

- لا تقلقي يا ابنتي، أنا بخير، إنه جرح بسيط.

- ما الذي حدث؟

سأل الفتى الذي أتى بدوره على سماع صوت الارتطام لينحني أمام سيده يتفحص جرحه بذعر.

- أنا بخير، يبدو أنهم هؤلاء الذين يتهمونني بالكفر والزندقة، لكن الحمد لله لم تكن ضربته صائبة نجحت في صده بحفظ الله.

صمتت مريم تستمع إلى كلام عباس وهي تحاول الضغط على جرحه لمنع النزيف، بينما عقلها يدور بسرعة في هؤلاء الذين يريدون التخلص منه، فربما هي تعلم جيدًا من يكونون، عادت من أفكارها على صوت زوجته التي دخلت للتو، وما إن رأته على تلك الحال حتى صرخت بذعر وأسرعت بدورها نحوه.

تحدث الفتى بقلق: «يجب أن أستدعي الطبيب فورًا».

ساعدتهم مريم ليأخذوه إلى غرفته، بينما انطلق الشاب بسرعة لاستدعاء الطبيب، وبعد وقت قصير كان هذا الأخير قد أنهى تضميد جرحه وهو يطمئنهم أنه لم يكن بالعمق القاتل وأنه سرعان ما يلتئم.

اعتذرت مريم لتغادر البيت بعد أن اطمأنت عليه، لكنها وقبل أن تخرج تحركت نحو الغرفة حيث النافذة التي عرفت من عباس بن فرناس أن القاتل تسلل منها، وربما كان يريد الاختباء وانتظار الوقت المناسب لتنفيذ جريمته، لكن اصطدامه بأحد الصناديق هو ما لفت انتباه عباس الذي ذهب لاستطلاع الأمر.

وقفت أمام النافذة المطلة على مساحة واسعة خالية من المباني وخمنت أن المتسلل اختارها لأنه بالتأكيد مكان بعيد عن أعين الناس، وقبل أن تغادر وقفتها والبيت بأكمله».

لفت انتباهها شيء ما مستقر على الأرض خارج المنزل، ويبدو أنه سقط من القاتل؛ ورقة مطوية... ورقة لا تنتمي إلى هذا العصر...

* * *

- لماذا أنت غاضب هكذا يا سهم؟

قالها طارق وهو يجلس بجوار السهم تحت شجرة صغيرة أمام دار الضيافة التي يستضيفهم بها سالم.

- لست غاضبًا، ولكني أفكر أن وجود هذا الكم الكبير من الحراس لدى الأمير عبدالرحمن يجعل الوصول إليه صعبًا، وأشعر بالضيق لأني تسببت في تعطيل ذاكرة مريم عندما كنت أفسد عمل الشريحة التي في رأسها.

- لقد أنقذتها يا سهم، مريم الآن شخص آخر، لقد بدأ يظهر الجانب الطيب لديها بعد أن بدأت تتحرر من الأسر.

فرك السهم يده في توتر، ثم قال بخفوت:

- أخشى أنني لم أهزم الشريحة كليًّا، المنظمة زرعت الشريحة وغذتها بالخلايا العصبية في الرأس ووضعت من بينها خلايا صناعية تشبهها تمامًا، وهي خلايا دقيقة وذكية، حتى بعد هزيمتها تستطيع بناء نفسها مرة أخرى.

قال طارق منزعجًا:

- أتعني أن مريم ربما تعود تحت سيطرة المنظمة مرة أخرى؟

- لا أستطيع الجزم بذلك...

صمت السهم برهة، ثم قال بتردد:

- لكن ربما نلجأ نحن إلى إعادة بناء تلك الخلايا.

- هل جننت؟.. لماذا نفعل ذلك؟

- لأن مريم كانت دائمًا الدليل، بمعنى أننا في مهمتنا علينا أن نعرف ما هي المهمة، لكي ننقذ التاريخ ونستطيع العودة إلى زمننا، وجود مريم تحت سيطرة المنظمة كان يسهل علينا الوصول إلى الأهداف عن طريق الرباط الذي يربطنا بمريم، فربما نفكر في هذا الحيلة لكي....

قاطعة طارق بحسم:

- لا، لن يحدث ذلك، سنجد حلًّا بإذن الله تعالى، لن تعود مريم تحت سيطرة المنظمة مرة أخرى بإذن الله، مهما كلف الأمر حتى ولو علقنا هنا إلى الأبد.

لم يكد ينتهي من جملته حتى جاء سالم مسرعًا، وقال من بين لهاثه:

- سيدى عبد الله بن سنان هنا.

اندفع الثلاثة إلى الداخل وفي رأسهم ألف سؤال وسؤال.

* * *

تقدم الشباب نحو عبد الله بن سنان وهم يشعرون بالدهشة، ويتساءلون عن سبب زيارته لهم، قطع السهم أفكاره قائلًا:

- أتمنى أن تكون زيارتك لنا خيرًا يا سيدي.

عجيب بحق رغم صغر سنكم وقد كنتم

«إن إصراركم

ابتسم عبدالله بوقار وقال:

تستحقون اعتذارًا مني على عدم تصديقكم في البداية».

– هل تعني أنك قد تأكدت أن التصميم قد بدل؟

قالها سالم بلهفة جعلت عبدالله بن سنان يربت على رأسه قائلًا:

– نعم، ولكن للأسف لقد اكتشفت هذا متأخرًا، لقد صرفنا وقتًا وجهدًا وأموالًا في بناء المنجنيق، ثم اكتشفنا الخطأ عندما أرسل إليَّ حاجب الدولة يستشيرني؛ أسأل الله أن تصل إليه الرسومات التي عدلتها في الوقت المناسب، فما أعلمه أن حصار المجوس على أشده والمسلمون، يبلون بلاءً حسنًا.

– هل لي بطلب يا سيدي؟

قالها طارق فانتبه له عبدالله ليكمل:

– أريد أن يتتلمذ سالم على يديك.

نظر إليه عبد الله نظرة فخر وإعجاب، ثم قال وهو ينظر إلى سالم الواقف أمامه بقلق ينتظر قراره:

– حسنًا، سأنتظرك غدا بعد صلاة الفجر في مكتبة قرطبة الكبيرة، ولكن لكي تثبت جدارتك عليك أن تجتاز الاختبار بنجاح يا فتى.

– سأكون عند حسن ظنك بإذن الله، لقد نسخت العديد من الكتب من قبل.

- أنت فتى شجاع يا سالم، بارك الله فيك.

قالها عبد الله مشجعًا، ثم أضاف:

- عندما ألتقي مولاي عبد الرحمن بن الحكم سأخبره عن صنيعكم يا أبطال.

تنحنح طارق قبل أن يقول:

- لا نريد أن يعرف أحد بما فعلنا لقد كان هذا من دافع خوفنا على دولتنا... ولكن هل من السهل مقابلة مولاي عبد الرحمن؟

- ألست من سكان قرطبة يا رجل؟! إنه يصلي إمامًا بالناس في مسجد قرطبة الكبير، لا يمنعه إلا مرض أو سفر، عندما يعود سلم عليه متى شئت، وسيكون من حظك الجميل أن يكون درس بعد الصلاة للقاضي يحيى بن يحيى، ستشعر أنك في روضة من رياض الجنة حينها...

قال عبد الله جملته الأخيرة بانتشاء عجيب حركت مشاعر طارق اليمانية قبل أن يكمل عبد الله بنفس النبرة الهادئة:

- أما لو كانت لك مظلمة فارفعها للديوان، وستدخل إلى قاعة الحكم تلتقي مولاي بنفسك وتعرض عليه مظلمتك.

- هذا رائع، بارك الله في مولاي الأمير.

قالها طارق، ثم ودعوا عبد الله إلى الخارج بينما اندفع سالم إلى الداخل وهو يقفز فرحًا قائلًا:

- أمي... أمي.... لقد وافق، لقد وافق.

- على رسلك يا ولدي، ما الذي حدث؟.

- من الغد سيضمني سيدي عبد الله إلى مكتبة قرطبة الكبيرة.

- مبارك يا ولدي، مبارك، ستكون عالمًا فذًّا بإذن الله تعالى، لقد كان هذا حلم أبيك منذ مولدك.

- وحلمي أيضًا يا أمي، منذ أن وعيت وأنا أسمع وأرى مولاي الأمير عبد الرحمن يرسل العلماء والنساخ إلى شتى بقاع الأرض حتى يأتوا بالجديد ويجمعوا العلم في مكتبة قرطبة، وأنا أتمنى أن أنضم إلى هؤلاء أجوب الأرض طالبًا للعلم وناسخًا للكتب، الحمد لله.

لم تتمالك الأم دموعها فخرًا، وضمت ولدها إلى صدرها تدعو له بالبركة وصلاح النية وحسن العمل.

* * *

استمر اختفاء مريم يومًا كاملًا، مما جعل طارق يقطع الغرفة ذهابًا وإيابًا وهو يقول: «أين هي؟ لقد تأخرت كثيرًا، لا أدري يا سهم لماذا تركتها تذهب بمفردها».

- لا تقلق عليها، مريم ستعود سالمة إن شاء الله.

مرت ساعة أخرى وعندها فقد طارق أعصابه ثم قال:

- تبًّا لهدوئك يا سهم، سأذهب للبحث عنها.

اندفع إلى الخارج، فتبعه السهم ساخطًا، فقد كان يشعر بإعياء منذ الصباح، ولكنهما لم يكادا يبتعدان عن البيت بضعة أمتار حتى وجداها تظهر في بداية الطريق، ولما اقتربت منهما تناسى السهم إعياءه وهو يسألها بلهفة بعد أن لمح أثر دماء على ثيابها:

- هل أنتِ بخير؟.. وما هذه الدماء التي على ملابسك؟

- لا تقلقا أنا بخير، لقد نجوت من محاولة اغتيال للعالم عباس بن فرناس صاحب الميقاتة.

- هل قتل؟

- لا، إنه بخير، ولكن أظن أن الخطر قريب منه أو مني، لا أدري أيًّا منا المقصود.

تنهدت، ثم أكملت:

- للأسف فر القاتل قبل أن يراه أحد.

زم السهم شفتيه ثم قال:

- يا للخسارة.

- ليست خسارة كاملة، لقد سقطت منه هذه الورقة.

أخذها طارق، حاول أن يقرأها، ولما عجز قال:

- إنها بلغة غريبة.

ردت مريم وهي ترفع كتفيها:

- إنها مزيج ما بين اليونانية القديمة واللاتينية ولغة أخرى لم أتبين ماهيتها، وما أعرفه من اللاتينية قليل جدًّا، لم يساعدني في فك شيفرتها.

- أنا سأفعل.

قالها السهم وهو يأخذها من يد طارق بلهفة يدقق النظر في الحروف، ثم اندفع إلى الداخل دون أن يرفع رأسه عن الورقة يتمنى من داخله أن تساعده عباءته الإلكترونية في ذلك.

* * *

وفي عمق البحر وبمسافة ليست بعيدة عن الغواصة كان الهجوم يتزايد على كبسولة عبد الله الذي فعَّل فيها نظام الدفاع وظل يراوغ العناصر المهاجمة، وفي لحظة اقتنع أن انفجار الكبسولة هو الحل في الخلاص من هذا الهجوم، ففعَّل خطة التفجير، وقبل أن تنفجر الكبسولة بثوانٍ خرج منها واستغل الفوضى التي سببها الانفجار بالتخفي بين الشعاب حتى اطمأن لخلو المسافة من أي عناصر مهاجمة، ثم انطلق إلى الغواصة والتي تأكد من الاستيلاء عليها.

لا بد أن يفعل شيئًا لينقذ به ميسان، لن يدعها لهم، ظلت هاربة منهم لسنوات، ولن يكون السبب أبدًا في خضوعها لهم.

وفي الغواصة كان كل شيء يحدث كما أمر ديفيد، عاث الجنود بحثًا في الغواصة على أوراق تخص عبد الله بعد أن كبلوا أيدي وأرجل ميسان وخربوا كل دوائر شيا الكهربائية، ولكنهم لم يجدوا أي ذاكرة حتى الأوراق التي حصلوا عليها كانت أوراقًا ثبوتية لعبد الله فقط.

وبعد أن عاد مستوى الضغط الأكسجين في الغواصة إلى حده الطبيعي استعادت نيسان وعيها، لتجد نفسها أمام مجموعة من الرجال المسلحين، توسطهم قائدهم التي تتذكره جيدًا، هذا العنصر

الذي ظل يطاردها من المغرب إلى مصر إلى تونس إلى تركيا وكل دولة تهرب فيها وتراوغه فيها حتى تختبئ منه ويعود ليجدها:

- أخيرًا يا ميسان تمكنت منك.

أصابها الهلع عندما وجدت نفسها مكبلة وحيدة بين هؤلاء الوحوش الذين ظلت تهرب منهم لسنوات، بللت الدموع حجابها الذي انتزع معظمه من همجية الجنود وهم يسحبوها ليجنبوها مكان المرور.

- اتركني، لم يعد بوسعي إفادتكم بشيء، لقد أصبحت مسنة وتركت هذا الأمر منذ زمن.

- أتركك

قالها وهو ينظر إلى الجنود ويضحك بسخرية:

- سأتركك، ولكن لمن؟ لحيتان البحر!.. لم أكن أتخيل أني سأجدك هكذا في النهاية في غواصة لي، فقط لأحقق مهمة طلبت مني منذ سنوات وحرمت من الترقي بفشلها.

ظلت صامتة وهي تحاول أن تجد مخرجًا مما هي فيه، لم تخضع ميسان أبدًا منذ أن عملت على هذا المشروع، كان مجرد ساعة رملية

وأيقونة فخر لعالم إسلامي تسمى) الميقاتة *(، حتى تطور الأمر بفضل تجاربها هي وعبد الله وأصبح بوابة للزمن تستطيع بها أن تكون جزءًا من أي عصر تريده.

كانت تعلم جيدًا خطر هذا المشروع في تغيير أي الأحداث في أي زمن، فلم تخضع لتلك المنظمة وظلت حارسة للتاريخ، تهرب بأكثر أجزاء المشروع أهمية ومن دونه لن يكتمل الدخول والخروج من الزمن بأريحية، انتهبت على صوته الذي اقترب منها لدرجة أنها كادت أن تشم أنفاسه البشعة:

- أعطيني البوابة أعطيكِ حريتك، وإلا...

ومد يده ليخيفها، ويحاول تهديديها بالتحرش بها، ولكنها ألجمته بدفعة من البصاق انطلقت من فمها غطت وجهه، فاندفع راجعًا إلى الخلف وهي تهتف:

- لم أستسلم في الماضي، ولن أستسلم الآن، التاريخ ليس لعبة بأيديكم التاريخ سيبقى كما هو دليل على خبثكم وخستكم وضعفكم.

ارتفع صوت جهاز الرادار يتلقى رسالة من ديفيد:

- أبلغني بخط سير الأحداث يا ويليام، ماذا وجدتم؟

سمعت ميسان صوته فتذكرته، هذا الذي اجتمع معهم وعرض عليهم الكثير من المال ليشتري المشروع ويعملوا معه في المنظمة.

هذا هو الرجل الذي فرق بينها وبين عبد الله التي كانت قد تعلقت به طوال سنوات عملها على المشروع، وكان يعدها بالزواج بعد أن ينتهوا من مشروع أحلامهم، هذا الذي فرق وبينها وبين ابنتها وحفيدها.

تتذكر ميسان عبد الله وهو واقف على تلة صغيرة ويصرخ في الفراغ من أمامه:

- سأتزوجك يا ميسان وسنبني معملنا الخاص، وسنتوج بنوبل سيحكي علينا التاريخ.

ويردد حراس الميقاتة حراس الزمن. كانت تضحك حينها وتقول:

- حقًّا إن العلماء مجانين، وها هو عقلك قد حلق مع الأحلام يا عبد الله، انتبه ليس معنا نقود نكمل بها مشروعنا.

جلس بجانبها وهمس بخفوت:

- لا تقلقي، لقد عرضت المشروع على منظمة تهتم بالتاريخ وسيمولونه، ووجدت لنا عملًا معهم أيضًا.

صوته ذكرها بكل شيء قد مضى، كان ويليام يقترب وصوت ديفيد الغليظ يقترب، عادت من ذاكرتها وقد وجه ديفيد حديثه إليها:

- ميساااان، أخيرًا وقعتِ، ألم أخبرك في الماضي أن عبد الله سيخونك، وأن نهايتك ستكون على يده، ادعي له، لقد حل عليه انتقام الرب و التهمه الحوت جزاءً لأفعاله، ولن تجدي مأوى إلا في أحضاننا، وأخيرًا سأستضيفك في المنظمة لأشهر وربما سنوات، سنخرج منك كل ما كتمته عنا من قبل.

وهي تصرخ وتبكي ولا تردد إلا:

- خسيس، خسيس، لم يمت عبد الله، أنت من دبرت كل هذا.

وبالرغم من غضبها من عبد الله وانتقامها الذي بقي مشتعلًا في داخلها لسنوات، أزعجها خبر موته:

- ويليام، أنهِ ما عندك، واحملها، واحضر، لقد اشتقت لها في الحقيقة.

هيأت ميسان نفسها لمقاومة عنيفة لعدم الذهاب معهم، وانتظرت لحظة إنهاء المكالمة والانقضاض عليها؛ ولكن ما حدث كان مختلفًا.

أنهى ويليام المكالمة، استدار ينظر إلى الشاشة الكبيرة التي بدأ يظهر فيها عنصر صغير يقترب من بوابة الطوارئ المغلقة بإحكام، ثم أخرج مسدسه الخاص وصوبه تجاه ميسان، ارتعبت ميسان خوفًا، وأغلقت عينيها وانكمشت على نفسها أكثر، دافنة رأسها بين ركبتيها ناطقة الشهادتين، حتى سمعت صوت تتابع طلقات الرصاص السريع، لم تتخيل ما يحدث بعد حتى شعرت بسخونة تتسلل بين قدميها.

رفعت رأسها لتجد نفسها بين بركة من دماء الجنود المحيطين بويليام وهو واقف بينهم يضحك:

- هل تتخيلين أني خسيس لدرجة أن أسلمك لديفيد؟ إن كنت أريد كنتُ فعلتها منذ وقت طويل؛ أنتِ معي بأمان إن كنتِ وثقتِ بي من البداية، ولم ترمي نفسك لهذا العجوز لتتزوجيه ليحميك من عبد الله والمنظمة، ولكنك من اخترت.

قطبت ميسان حاجبيها وتذكرت يوم اكتشفت قبول عبد الله لعرض هذه المنظمة، وسرقت ما تبقى من خبايا العلم انطلقت هاربة بالتاريخ تتأرجح بين المدن، ساعدها صديق والدها الأستاذ الدكتور وهيب عثمان، وهربها إلى تركستان مقر عمله، ثم عرض عليها الزواج هناك، كانت حينها تأتيها رسائل تهديد على شاكلة:

- لن يحميكِ، سيستغلك.

- لا تتزوجي منه سنتخلص منه.

- كنت أنت؟!

قالتها وهي ترتجف:

-نعم أنا من خططت لكل شيء، حتى موته.

ظلت تصرخ عاليًا وتبكي:

- أخرجني من هنا.

اقترب منها ورفعها من كتفيها بقوة وهي تتألم أظهرت مقاومة شديدة حتى للمسها، ولكنها استجابت عندما طوق رقبتها بذراعه وبيده الأخرى صوت المسدس على رأسها:

- ماذا تريد مني ؟!

- هششششش.

اقترب بها إلى لوحة التحكم وضغط على زر الفتح الأحمر.

* * *

ثلاثة أيام والسهم يحاول أن يفك طلاسم الورقة ولكن لا يصل إلى شيء؛ رأى طارق ومريم يدخلان عليه فقال دون أن ينتظر سؤالهما:

- يبدو أنها لغة معقدة اخترعتها المنظمة ليكتبوا بها رسائلهم شديدة الأهمية

ورغم إجابته البادية في جملته السابقة، إلا أن طارق سأله:

- هل أحرزت أي تقدم.

- للأسف قليل جدًّا ما أحرزته، لا يكفي لقراءتها، ولكني سأكمل عملي عليها، وأتمنى أن أحرز تقدمًا قريبًا.

فكر طارق قليلًا، ثم قال:

- هل من الممكن أن تكون تلك الورقة لإلهائنا؟

ردت مريم هذه المرة:

- ممكن طبعًا، وهذا يدفعنا إلى تصرف آخر.

- ما هو؟

- أن نحاول أن نقتفي أثر رجل المنظمة.

- وكيف نفعل ذلك؟

ترددت ثم قالت:

- نوهمهم أنني ما أزال تحت سيطرتهم مرة أخرى.

ولكن طارق غضب قائلًا:

- لا، لن نجازف بهذا أبدًا.

ورغم سعادة مريم الداخلية من خوف طارق عليها إلا أنها ردت:

- ليس لدينا حل سوى هذا حتى يتمكن السهم من حل الشيفرة، أريد أن أنهي هذه المهمات اللعينة وأعود إلى أمي.

ثم أضافت بتصميم:

- إذا لم يفعلها السهم، سأفعلها أنا.

* * *

إن الفرق في التوقيت الذي تخفى عبد الله به والمسافة التي سبحها ليصل ثانية إلى الغواصة كفيل بإنهاء أسطوانة الأكسجين التي يحملها على ظهره، لكنه حاول أن ينجح في الوصول إلى فتحة الطوارئ، كان الأمر غريبًا بالنسبة له، ماذا يريدون من الغواصة وأنا بخارجها؟ ولكنه الآن كل ما يريده أن ينقذ ميسان مما أغرقها به، يريد أن يعطيها ولو فرصة لتسامحه.

ظل يحاول فتح بوابة الطوارئ بكل ما أوتي من قوة بدأت تنهار جراء نفاد كمية الأكسجين، كاد يغيب عن الوعي، وويليام يشاهد كل هذا من كاميرا المراقبة ويهمس لميسان التي انهالت عليه بالضربات بقدمها، ترى عبد الله وهو ينازع أنفاسه الأخيرة ويحاول الوصول لها وقبل، أن يفقد آخر نفس له انفتحت بوابة الطوارئ ليرمي عبد الله بها نفسه، ويخلع قناع الأكسجين ويشبع خلايا جسده منه ثانية.

استمر لدقائق يحاول استرداد طاقته، وانطلق وما زال رأسه يتأرجح حتى وصل إلى غرفة القيادة ليراها أمامه ثانية يطوقها ويليام بذراعه ويصوب بالأخرى النار تجاهه، نظر حوله ليجد بركة الدماء الغارقين فيها، انقبض داخله، الأمر ليس كما يظن حتى انتبه:

- أهلين روميو، محبوبتك بخير لا تقلق.

- اتركها يا ويليام، أنا أمامك، اتركها وأنا سأعطيكم ما تريدون.

صرخت ميسان:

- لا يا عبد الله، حياتنا فداءٌ لهم.

ضغط ويليام على رقبتها بذراعه:

- لن يجيئ دورك حتى الآن يا حلوتي، انتظري.

حاول عبد الله استعطافه بما يعرف عنه في خلال عمله بالمنظمة:

– ويليام، ليس ديفيد بالشخص المؤتمن، أنت تعرف ماذا فعل بك منذ فترة.

ضحك ويليام وهو بهمس لميسان:

– تحملت من أجلك الكثير، ولم أبلغ عنك، مع قدرتي على ذلك.

تذكر عبد الله شكوك المنظمة في قواه العقلية، وأنهم استبعدوه من مهمات كثيرة، وكانوا يريدون فصله.

عاد ينظر إلى عبد الله:

– لا تقلق يا ديفيد، لن يعرف شيئًا عما يحدث.

وأطلق رصاصة سريعة أنهت حياة جندي كان لا يزال متمسكًا بالحياة. في هذه اللحظة اندفع عبد الله ليهاجمه، ولكنه صوب طلقة مرت بجانب أذن عبد الله ولم تصبه إلا باضطراب وصوت صفير عالٍ في أذنه، سمع بالكاد صريخ ميسان:

– أرى أننا تكلمنا كثيرًا، والوضع أخذ أكثر من وقته، تعالوا نسمع هذا الفيديو ثم نعود.

انبثقت شاشة كبيرة فاصلة بين عبد الله وميسان وويليام، وخرج منها زلينسكي يتحدث:

– أهلًا عبد الله، أهلًا ميسان. أعتذر بشدة على طريقة استدراجي لكما، ولكني قبل أي شيء أريد أن أحيي ذكاءكم، برافو. وأخذ يصفق هو ومن معه حتى أكمل:

– أعلم كم حبك للتاريخ وتفانيك في الحفاظ عليه، وأنت تعلم جيدًا، فقد صاحبتنا لأعوام أني دائمًا معك في أفكارك.

أومأ عبد الله برأسه وقال:

– نعم، كنتَ دائمًا رافضًا لأفكار المنظمة.

قاطعه زلينسكي قائلًا:

– رافضًا لأفكار ديفيد وليس المنظمة؛ الأمر الآن اختلف يا عبد الله، إننا جميعًا هنا ضد ديفيد، ولو وضعت يدك في يدي ستكون نهايته على أيدينا، وسأجعلك في مجلس القرار للمنظمة.

– ولو لم أوافق على شرطك ؟

– سنرسل إلى الأجهزة المعنية صورة هؤلاء الجنود، وستكون أنت المسؤول الأول عن موتهم في أثناء تأدية عملهم.

- ماذا تريد يا زيلنسكي؟

- أن تعطيني بقية التجربة، وتعود لتترأس معي منظمتي.

صرخت ميسان:

- لا، لا، لا، لن نعيد التاريخ ثانيةً، هذا بالضبط ما حدث من قبل.

لم يتحمل ويليام ما يقال حتى رفع مسدسه وهمَّ بضربها، لكن عبد الله انتبه للأمر فاندفع بسرعة نحوه ليدفعه بقوة جعلت الثلاثة يسقطون على الأرض، أمسك عبد الله كف ويليام الممسكة بالمسدس في محاولة لاستخلاصه من بين يديه بينما زحفت ميسان إلى الخلف وهي تراقب الصراع الدائر بين عبد الله وويليام، وكل منهما يحاول السيطرة على الآخر، لكن يبدو أن ما عاناه عبد الله من إعياء قبل عودته إلى الغواصة أثر على قوته ما جعل

ويليام يسيطر على الوضع بسرعة، وقد جثا فوق جسده ليثبته على الأرض ويمنعه من الحركة؛ تحدث عبد الله من بين لهاث أنفاسه المتقطعة قائلًا:

- لا تظن أنني سوف أستسلم بعد كل هذه السنوات.

- لا تجبرني على قتلك، حتى الآن نحن نريدك معنا.

- لا تفعل أرجوك...

صرخت ميسان التي كانت تراقبهما بجسد مرتجف. استغل عبد الله التفات ويليام نحو ميسان ليدفعه بكل ما تبقى لديه من قوة، محاولًا التخلص من قبضته، لكن ويليام سرعان ما استعاد اتزانه، ورفع مسدسه ليطلق رصاصته القاتلة، لتنطلق بعدها صرخة ميسان التي شقت فضاء الغواصة...

وقف زلينسكي وكل من معه في الغرفة بغضب سرعان ما تلاشى وارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتيه وهو يضرب المنضدة أمامه بسكينه وهو يقول:

- الآن عدتُ لأسيطر على كل شيء، وداعًا ديفيد الآن فقط أستطيع تقديم بلاغ ضده عند الهيئة العظمى القادم لي أنا.

* * *

صداع خفيف بدأ يتسلل إلى رأسها، ليتسبب لها في تشويش في رؤيتها يصاحبه ألم في معصمها، قررت مريم أن تغادر غرفتها لتبحث عن الطبيبة زينب، وتطلب منها علاجًا لهذا الصداع، لكنها ما إن

تحركت بضع خطوات حتى توقفت فجأة وقد بدأت تشعر بارتباك شديد، فهذه ليست المرة الأولى التي تشعر فيها بصداع متزامن مع ألم معصمها، هل هي مجرد مصادفة؟

رفعت يدها وأمسكت مكان الألم تحت السوار المكون من حبات خرز ملونة، جذبته بقوة محاولة انتزاعه، لكنها لم تنجح، ومن دون تفكير انطلقت تبحث عن طارق حتى وجدته جالسًا في صحن المنزل أمام النافورة يراقب تدفق المياه في صمت وتفكير، لتجلس أمامه رافعة معصمها أمام واجهه، نظر إليها باستغراب لتقول: «لا أستطيع نزع هذا السوار من يدي».

تغضن جبينه بغير استيعاب لتكمل حديثها دون انتظار لرده: «هو يبدو سوارًا عاديًّا كالذي تلبسه النساء في الأندلس، ومن المفترض أن الخيط الذي يجمع حباته الملونة من قابل للقطع، لكن هذا لا يفعل».

بدأ طارق يفهم ما ترمي إليه مريم ليقول: «تقصدين أن هذا ليس سوارًا عاديًّا».

أومأت برأسها وتابعت حديثها: «قبل أن أذهب إلى بيت عباس بن فرناس شعرت بصداع متزامن بألم في معصمي، تحديدًا مكان السوار، بعدها عرفتُ ما هو مطلوب مني القيام به».

– معنى ذلك أن السوار مرتبط بشكل ما بتلك الشريحة التي زرعتها المنظمة برأسك.

أكمل طارق جملته واستقام واقفًا وهو يقول: «يجب أن نذهب الآن إلى السهم، لنرى كيف يمكننا التخلص من هذا الأمر».

تحرك ليغادر جلسته لكن مريم شدته من ذراعه لتوقفه قائلة:

– انتظر قليلًا، ماذا لو أن السهم لم ينجح في حل شيفرة الورقة؟ أو أنها أصلًا ليست ذات أهمية؟

رفع طارق يده في وجهها محذرًا: «ما تفكرين به لن يكون أبدًا».

– الأمر خطير، نحن حتى الآن لا نعرف ما تريد المنظمة تنفيذه في هذا العصر، ولا أعتقد أن تغيير تصميم المنجنيق هو كل شيء.

– ولكن لا يمكن أن نعرض حياتك للخطر...

قاطعته بسرعة: «لن يكون هناك أي خطر إذا ما اعتقدوا أني ما أزال أنفذ تعليماتهم».

صمت طارق ينظر إليها بغير اقتناع لتكمل محاولة الضغط عليه: «يجب أن ننفذ المهمة، وإلا سوف نعلق هنا ولن نستطيع العودة إلى عالمنا».

- حسنًا، ما الذي يمكننا فعله إذَنْ؟

- أعتقد أنني سوف أستقبل التعليمات قريبًا، فالألم بمعصمي تزداد حدته...

قالتها وهي تنظر إلى طارق الذي بدأت معالم القلق ترتسم بوضوح على وجهه...

* * *

اقتتل المسلمين والفايكنج لبضعة أيام بين كر وفر، ولكن الغلبة لم تحسم بعد. أظهر المسلمون بسالة وشجاعة متناهية في حربهم للفايكنج، خاصة وأن الأسطول المسلم لم يكن أسطولًا بالمعنى الحربي، كان صغيرًا ضعيفًا لا يصلح لحرب كتلك، بدأ المسلمون في نصب المجانيق، وبدأ ابن رستم في التقدم بقوته ببسالة، وكذا فعل موسى بن موسى الذي أظهرت قوته بأسًا شديد.

استمر الحصار أكثر من أربعين يومًا، وبدأ المسلمون في تكثيف ضرباتهم من أجل إسقاط أسطولهم، وبالفعل استطاعوا السيطرة على بعض السفن فأمر ابن رستم بإحراقها لكي لا يستطيع الفايكنج استعادتها مرة أخرى.

شعر الفايكنج بضراوة حرب المسلمين، وبدؤوا في تكبد الخسائر، ففقدوا ثلاثون سفينة وقتل منهم عدد كبير، ففكر قائدهم في عقد صلح مع المسلمين، فأرسل رسالة يطلب من المسلمين مقايضة الغنائم التي نهبوها والأسرى الذين أخذوهم مقابل اللباس والطعام وتأمين طريق عودتهم في نهر الوادي الكبير، ولكن ابن رستم رفض وتوعدهم باستئصال شأفتهم، فما كان منهم إلا أنهم جمعوا قواتهم واستعدوا لمعركة خاصة في الحادي عشر من نوفمبر عام ٨٤٤م الخامس والعشرون من صفر عام ٢٣٠م، وبالفعل التقى الفريقان في معركة طلياطة التي انتصر فيها المسلمون نصرًا ساحقًا، وسيطروا على ما تبقى من سفنهم وقتل منهم عدد كبير، وفر من بقي تتبعت قوة الهاربين حتى تأكدت من خروجهم من جميع الأندلس.

ورغم فرح المسلمين بهذا النصر الكبير، إلا أن عبد الرحمن بن الحكم لم يفرح، فلقد رأى بعينه الدمار الذي خلفته تلك الهجمات، وبدأ من ساعته التفكير في حل لعدم تعرض المسلمين لمثل تلك الهجمات مرة أخرى.

* * *

في إحدى قاعات القصر في مدينة قرطبة النور الخافت يتسلل من النوافذ العالية، حيث يقف عيسى بن شهيد أمام الأمير عبد الرحمن بن الحكم.

يجلس عبد الرحمن بن الحكم، أمير الأندلس، في مجلسه بوقار، ويحيط به رجال دولته ومستشاريه ووزراؤه، الجو مشحون بالتوتر والقلق، بعدما تناهت إلى مسامع الأمير أن أحد الرجال من أهل ثقته قد خان الأمانة وعرَّض البلاد لخطر عظيم، دلف عيسى بن شهيد إلى القاعة بخطوات ثابتة ليقف أمام الأمير بتواضع، لكنه في عينيه وميض العزم. تحدث عبد الرحمن بن الحكم قائلًا:

– لقد بلغني أيها القائد عيسى بن شهيد أن ألفونسو، الذي ظنناه من أهل ولائنا، قد خان العهد، فباع أسرارنا لعدونا. أهذا صحيح؟

أجابه عيسى بن شهيد:

- نعم، يا مولاي. لقد تعقبتُ ألفونسو وقبضتُ عليه بعد أن تأكدتُ من خيانته لقد خطط ودبَّر، وسلم للعدو تفاصيل حصوننا وأسرار طرقنا. لقد أقر بخيانته بين يدي، وهأنذا أضعه بين يديك ليحاسب على جرائره.

بإشارة من الأمير عبد الرحمن دخل الجنود وهم يجرون ألفونسو مكبلًا بالأصفاد شاحب الوجه، ينظر إلى الأرض، وقد أدرك أن ساعة الحساب قد اقتربت؛ تقدم به الجند حتى وقف أمام الأمير، لكنه لم يجرؤ على النظر إليه ليتحدث هذا الأخير بغضب متصاعد:

- رفعتُك وأكرمتك واعتبرتك واحدًا من رجالي، فكان جزاء ذلك أن تخون أرض الأندلس وأهلها؟ ما الذي حملك على فعلتك الشنيعة؟

أجاب ألفونسو متلعثمًا:

- مولاي... لقد ضعف قلبي أمام إغراءات العدو، ولم أكن أعي خطورة ما فعلت... أرجوك، اعفُ عني، فأنا نادم أشد الندم.

صرخ به الأمير عبد الرحمن بن الحكم:

- النادم لا يبيع أسرار بلاده، أمثالك لا رحمة لهم بيننا. لقد أوكلتُ لك الأمانة، وأنت خنتها، ولولا عيون الأوفياء من رجالي ربما كنتُ أرسلت المزيد من المعلومات لأعدائنا ليتمكنوا من بلادنا.

انتصب عيسى بن شهيد، ينظر بعينين مشتعلة بالغضب:

مولاي، لقد قمتُ بواجبي في القبض عليه، وأثق أن حكمك عليه سيكون عبرة لكل من تسول له نفسه الخيانة.

عبد الرحمن بن الحكم قائلًا:

- أحسنت يا عيسى، وكما كنت أمينًا على أسرارنا، ستظل عونًا لنا على حفظ البلاد. أما أنت يا ألفونسو، فلن تجد إلا العقاب الذي تستحقه.

أومأ بإشارة من الأمير، سحب الجنود ألفونسو إلى الخارج لتنفيذ العقاب وخرج عيسى بن شهيد من القصر بعد أن أدى واجبه، فخورًا بولائه، وواعدًا بالحفاظ على الأندلس من أي خيانة أخرى.

* * *

توقف السهم باستغراب ينظر إلى ما وصل إليه من حل للغز الورقة، هل هي مجرد خدعة أم أنه أخطأ مرة أخرى؟

لا يمكن أن أكون مخطئا أبدًا؛ قالها محدثًا نفسه وهو يقرأ لائحة الأسماء التي كتبت على الورقة:

- أبو القاسم الزهراوي.
- منذر بن سعيد.
- يحيى بن يحيى.
- عباس بن فرناس.
- .شمس الدين الأندلسي.
- بقي بن مخلد[1].

ولكن كيف يكون كل ما كتب على الورقة هي مجرد أسماء لأشخاص، يبدو أننا وقعنا في المصيدة لقد نجحوا في إلهائنا وإبعادنا

(1) بقي بن مخلد ولد عام 201هـ وتوفى عام 276هـ: أبو عبد الرحمن بقي بن مخلد القرطبي فقيه وإمام ومفسر أندلسي صاحب «التفسير» و «المسند» اللذين لا نظير لهما. كان له الفضل في دخول علوم كثيرة وأهمها علم الحديث إلى الأندلس قال عنه العلماء من كثرة علمه وتمكنه وهل ناحية فيها بقى بن مخلد يحتاج أحد أن يرحل لطلب العلم في مكان آخر.

عن البحث عما يخططون له. قالها السهم لنفسه بصوتٍ عالٍ وهمَّ بمغادرة الغرفة لكنه توقف عندما دخل طارق وهو يقول:

– أو أن هؤلاء الأسماء التي في الورقة هم هدف المنظمة!..

– ماذا تعني؟

– الأمر واضح؛ لقد قتل الشيخ شمس الدين الأندلسي، وتعرض العالم عباس بن فرناس لمحاولة اغتيال نجا منها بأعجوبة.

اتسعت عينا السهم بصدمة وهو يقول:

– إذَنْ، لا شك أنهم الآن يخططون لاصطياد ضحية جديدة.

– بالتأكيد، وإن نجحوا في تنفيذ مخططهم سوف تتغير معالم التاريخ في المستقبل، كل تلك الاختراعات التي كان السبق فيها لعلمائنا سوف تصير لهم بل وسوف يتلاعبون بها بما يخدم أهدافهم.

– لن نسمح بذلك بالتأكيد...

قالها السهم باندفاع ثم أكمل: «يجب أن يصل الأمر إلى الأمير عبد الرحمن».

– مسجد قرطبة...

قالتها مريم التي دخلت وعلى وجهها علامات الحيرة والتوتر.

أجابها السهم:

- ماذا تقصدين؟

- نحن نشك أن السوار الذي في معصم مريم له علاقة بتلقيها التعليمات من المنظمة...

رد عليه طارق:

- لكني هذه المرة لم أتمكن من سماع أي شيء، كل ما فهمته مسجد قرطبة.

صمت السهم مفكرًا قبل أن يقول:

- أعتقد أن استنتاجكما صحيح، لكن السوار لا يعمل بمفرده، هو يتلقى الشارات التي تترجمها الشريحة داخل عقلك عن طريق الخلايا العصبية المزروعة فتصل إليك التعليمات وما يجب عليك فعله بالتفصيل، ولأني أبطلتُ عمل الشريحة فإن تلك الخلايا لم تتمكن من ترجمة الشارات كاملة.

- كيف سوف نعرف إذا خطوتهم القادمة؟..

قالت مريم وهي تدير بصرها بين السهم وطارق الذي أجابها: «ما تريدان القيام به صعب، ماذا لو أن إعادة تشغيل الشريحة يمكنه أن يجعل مريم تعود من جديد تحت سيطرتهم ولا نستطيع بعدها تحريرها؟ أنت لم تنجح في إبطالها إلا بعد محاولات كثيرة».

خيَّم الصمت المتوجس على الجميع لكن مريم قاطعته بحزم: «بل سوف نفعل، لن أحتجز هنا بقية حياتي».

* * *

انطلق طارق مع السهم نحو بيت عبد الله بن سنان، فليس هناك غيره قادر على إيصال ما عرفاه من خطة المنظمة إلى الأمير عبد الرحمن ليعمل على تأمين حماية للعلماء من ذلك الخطر المحدق بهم، لكنهما ما إن وصلا إلى البيت حتى أخبرهما الخادم أن سيده ذهب إلى المسجد، فهو على موعد مع القاضي يحيى بن يحيى، ليغيرا طريقهما نحو الجنوب الشرقي للمدينة، وعلى مرتفع صخري على ضفة الوادي الكبير حيث يستقر المسجد الذي ما إن وصلا إليه حتى توقف السهم ينظر إليه بانبهار ممزوج بألم وحنين، انتبه إليه طارق ليسأله باهتمام عن سر تلك

النظرة الحزينة التي يتأمل بها المسجد الكبير، زفر السهم بمرارة وهو يقول: «أتعلم أن هذا المسجد العظيم الذي شيده الأمير عبد الرحمن الداخل وجرت توسعته مرات كثيرة إحداها كانت على يد الأمير عبد الرحمن الناصر، كان مركزًا للعلم والإدارة ومقرًّا للحكم ودارًا للقضاء والعدل، وكانت تخرج منه الحملات الجهادية، لقد كان بمنزلة جامعة تقدم مختلف العلوم الدينية والفكرية، وتخرج منه كبار علماء الأندلس ومنهم عباس بن فرناس والزهراوي وابن حزم القرطبي، لكنهم حولوه إلى كاتدرائية لا تزال قائمة حتى عصرنا».

رفع طارق رأسه يتأمله قبل أن يقول: «لم أكن أعرف الكثير عن تاريخنا، كنت منبهرًا بالحضارة الغربية، حتى إني اخترت الهجرة رغبة في العيش الكريم الذي لن أجده سوى في الغرب، لكن هذه المهمات التي وجدت نفسي مطالبًا بها لحماية تاريخنا جعلتني أعرف الكثير مما كنتُ أجهله، ورغم أني حتى الآن ما زلتُ أجهل لم تم اختياري بالذات من أجل هذه المهمة الصعبة، لكنني أشعر بالفخر مما عرفته والمسئولية لحماية ماضينا».

همَّ السهم بالحديث مجددًا، لكن طارق أوقفه قائلًا: «ليس لدينا وقت، يجب أن نسرع لمقابلة ابن سنان، فنحن لا نضمن خطوات المنظمة».

أومأ السهم موافقًا وانطلقا ليدخلا إلى باحة المسجد ثم تقدما في الممرات المزخرفة بالأقواس الحمراء والبيضاء، وهما يتطلعان إلى الأعمدة المتناغمة والممتدة في صفوف لا تنتهي. كانت عيناهما تدوران بانبهار في جمال المعمار الأندلسي وفي نفس الوقت تبحثان عن عبد الله بن سنان بين حلقات العلم المنتشرة في باحة المسجد الواسعة، فجأة رآه السهم يجلس في مقدمة إحدى الحلقات التي ازدحمت بالرجال أمام شيخ يرتدي عباءة بيضاء ويضع على رأسه عمامة، تبدو على ملامحه أمارات الهيبة، وكز السهم طارق بذراعه وهو يشير إلى مكان ابن سنان، ليتقدم الاثنان نحو الحلقة، وما إن وصلا حتى جذب السهم طارق ليجلسا بدورهما وهو يقول له: «علينا أن ننتظر حتى ينتهي فلا نثير انتباه أحد».

ظلا يستمعان إلى الدرس الذي كان يلقيه الشيخ يحيى بن يحيى باهتمام كبير، وقد انبهرا بعلمه الغزير وهو يروي موطأ الإمام مالك،

ويجيب المتسائلين ليشرح لهم ما استعصى عليهم فهمه، انتبه لوجودهما ابن سنان فأشار إليهما ليقتربا من مجلسه، انحنى ابن سنان مقتربًا من السهم الذي جلس بجواره ليقول له هامسًا: «تعرف الشيخ بن يحيى بالتأكيد».

– أسمع عنه، لكني لم أقابله من قبل.

– إنه أكبر علماء الأندلس، لا يضاهيه أحد في علمه ومكانته، حتى إن مولاي الأمير لا يعين قاضيًا على قضاء الجماعة حتى يستشيره ويأخذ برأيه.

لم يكن طارق يستمع إلى شيء مما يقال حوله، وقد تركزت نظراته على أحدهم، كان يجلس في مقدمة الحلقة وعيناه تراقبان الشيخ دون أن يطرف له جفن، ملامحه بدت جامدة، ونظراته حادة، لكن ما جعل طارق ينتبه إليه هو ذلك السوار النحاسي الذي يضعه حول معصمه، والذي بدا لطارق وكأنه يلمع فجأة بين الفينة والأخرى، ما أثار مشاعر الريبة في نفسه. انتهى الشيخ يحيى بن يحيى من درسه فالتفَّ حوله عدد من تلامذته الراغبين في الاستزادة من علمه بأسئلتهم. وقف ابن سنان وهو يقول لهما: «سوف ننتظر أن ينتهي الشيخ يحيى

لأعرفكما إليه»، لكن السهم قال له: «لقد جئنا لنتحدث إليك في أمر خطير جدًّا، ولا وقت لتأخيره».

قطب ابن سنان حاجبيه في استفهام، ليتابع السهم: «لقد توصلنا إلى معلومات بأن هناك من يريد التخلص من عدد من علماء الأندلس وقتلهم».

- هل تعرف ما الذي تقوله يا فتى؟

- أجل، والأمر غاية في الخطورة، ويجب أن يصل إلى الأمير عبد الرحمن.

فجأة تركهما طارق يقفان مكانهما واندفع بين المتحلقين حول الشيخ يحيى بن يحيى[1] ليتبعه السهم بسرعة حتى دون أن يفهم ما الذي يفعله، بحركة رياضية سريعة انقض طارق على الشاب الذي كان يتقدم نحو الشيخ مبديًا رغبته في سؤاله وجه إليه ضربة

(1) أبو محمد يحيى بن يحيى الليثي المصمودي الأندلسي القرطبي (152هـ - 234هـ) إمام وفقيه الأندلس وصاحب واحدة من أشهرروايات الموطأ، أخذها عنه أهل المشرق والمغرب، وشيخ المالكية في الأندلس في زمانه. وكانت له الفتوى في الأندلس حتى وفاته.

مباغتة لمعصمه، ليرتمي على الأرض خنجر كان يخفيه في كم جلبابه قبل أن يقيد حركته بسرعة ويرغمه على السقوط على ركبتيه...

* * *

تمكنت مريم أخيرًا من التخلص من صحبة ريحانة التي أصرت على مرافقتها وهي تحكي لها عن بعض الأحداث المهمة التي حصلت في قرطبة، رغبة منها في مساعدتها على استعادة جزء من ذكرياتها الغائبة، لكن مريم لم تكن بحاجة إلى تلك القصص، فهي تعلم أنها من زمن مختلف، وما تحتاج إليه لن تجده بالتأكيد لدى ريحانة. ما إن تركتها ريحانة حتى انطلقت بخفة وحذر نحو الغرفة التي يشغلها السهم وطارق اللذان غادرا البيت لمقابلة عبد الله بن سنان، فهو الوحيد الذي بإمكانه أن يأخذهما لمقابلة الأمير عبد الرحمن ليبلغاه عن خطة المنظمة للتخلص من العلماء.

تسللت إلى الغرفة وبدأت تبحث بين أغراضهما دون هدف محدد؛ لم تكن تعرف عن أي شيء تبحث بالضبط، لكنها كانت تأمل فقط أن تجد ما يزيل حيرتها ويبدد ذلك التشويش الذي يسيطر على عقلها، لم يكن هناك أي شيء ذي أهمية، شعرت بالإحباط وجلست على

الأرض واضعة رأسها الذي يستقبل طرقات قوية، أغمضت عينيها لتمنع الدموع التي

تجمعت بداخلها من الانطلاق، زفرت زفرات متتابعة ثم قامت من جلستها وهمت بمغادرة الغرفة حين انتبهت لطرف حقيبة قماشية مخبئة تحت غطاء صوفي، اقتربت منها لتجتذبها وتفتحها فوجدت بداخلها الميقاتة، أخرجتها ووضعتها أمامها تتأملها باهتمام، لقد كانت بحوزتها قبل أن يأخذها السهم منها حين أخبرها أنها لن تتمكن من استخدامها إلا لو كانوا جميعًا معًا، فجأة لمعت بذاكرتها صورة والدتها:

- إلى متى سوف تظلين معتكفة على هذه اللعبة؟..

قاطعتها والدتها بصوتها الهادئ: «أخبرتك مرارًا أنها ليست لعبة، لو تعلمين أهمية هذا المشروع لما سخرت منه».

ابتسمت مريم باستهزاء كعادتها وهي تقول: «ميقاتة عباس بن فرناس، ذلك الاختراع الذي ليس له مثيل، والذي تسعى الدكتورة ميسان إلى تطويره وإخراجه بشكل جديد ومبهر»...

عادت من ذكرياتها وهي تشعر بدفء يسري على خديها؛ الآن تتذكر ملامح والدتها جيدًا ليتها تستطيع العودة إليها، ليتها تستطيع الاعتذار منها والارتماء على صدرها لتنعم بحبها وحنانها الذي لم تكن تشعر به والآن تفتقده كثيرًا..

زادت حدة الصداع برأسها فقامت من مكانها لتعيد الميقاتة وتغادر الغرفة، لكنها توقفت فجأة حين لمعت الميقاتة بين يديها وبدأت تضيء بشكل غريب، ودون أن تنتظر وضعتها بسرعة داخل الحقيبة وألقتها على كتفها لتنطلق بسرعة بحثًا عن مرافقيها.

* * *

- أخيرًا انتهى الكابوس، لا شك أن الأمير عبد الرحمن سوف يؤمن الحماية اللازمة لعلماء قرطبة.

قالها السهم وقد ارتسمت على وجهه أمارات الراحة والابتهاج، لكن طارق سأله بقلق: «تعتقد أنه صدقنا بالفعل؟».

- بالطبع لا داعي للقلق، قتل الشيخ شمس الدين وما رآه ابن سنان بنفسه من محاولة قتل للشيخ يحيى بن يحيى لن تجعلهم يشكون في صدق حديثنا.

صمت طارق مفكرًا وهو يتذكر ما حدث بعد أن ألقوا القبض على ذلك الشاب، فما إن أخذه الجند ودفعوه ليغادروا المسجد، وفي غفلة منهم أخرج قنينة سم صغيرة كان يدسها في حزامه ليسكب محتواها بسرعة في فمه قبل أن ينتبه له الجند ليسقط صريعًا على الفور، عاد طارق من شروده متسائلًا:

- لكن بموت ذلك الشاب لن تكون هناك فرصة للوصول إلى حقيقة من خلفه.

- بالطبع، لقد انتحر حتى لا يفشي أسرار جماعته، وإن كنتُ واثقًا أنه لن يستطيع الاعتراف حتى لو بقي حيًّا، فبالتأكيد كانوا سيرسلون إليه من يقتله قبل أن ينطق كلمة واحدة، لكن ما يهمنا أن الأمير علم بالمؤامرة وسوف يتخذ ما يلزم لحماية علمائنا.

- تعتقد ذلك؟

- بالتأكيد، لقد سمعت حاجب الأمير وهو يخبرنا أن كل شيء سيكون على ما يرام.

- الحمد لله...

قالها طارق وهو يتنهد بارتياح قبل أن يوقفه السهم فجأة ليسأله:

– أريد أن أعرف كيف عرفت أن ذلك الشاب يخطط لطعن الشيخ يحيى بن يحيى؟

– أثار انتباهي السوار الذي يحمله، شككت بأن يكون كذاك الذي تحمله مريم، فبقيت أراقبه بتركيز حين وجدته بتسلل بطريقة مريبة مقتربًا من الشيخ، فقررت تنفيذ هجومي عليه؛ في الحقيقة لم أكن متأكدًا من ظنوني، لكني لم أكن أملك حلًّا آخر.

– أحسنت الفعل، لو انتظرت ربما كان ينجح في غرضه.

كان طارق والسهم قد اقتربا من من منزل مضيفهم سالم، حينما انتبها لصوت مريم التي اقتربت منهما راكضة وعلى وجهها علامات الذعر، أسرعا إليها ليسألها طارق بقلق:

– ما بك يا مريم؟.. ما الذي حدث؟

وضعت الحقيبة على الأرض وأخرجت الميقاتة وهي تقول: «لا أعرف ما الذي يحدث لها».

ركع السهم على ركبتيه يتفحصها بصدمة، كانت البلورة التي بداخلها تلمع بشكل غريب، وأرقام المعادلات يظهر عليها بشكل

عشوائي. أخذ ينقر عليها محاولًا معرفة ما يحدث قبل أن يرفع رأسه ينظر إليهما وهو يقول:

- هناك خطأ ما، لا أعرف ما الذي يحدث، لا أستطيع التحكم فيها.

- ما الذي تقصده؟

قالها طارق.

تحدثت مريم وقد شحب وجهها:

- إن لم تعمل الميقاتة فلا يمكننا أن نغادر هذا الزمن، أليس كذلك؟

سأل مريم وهو ينظر إليها بريبة:

- لا شك أن هناك عطلًا ما، هل حاولت تشغيلها؟

- لم أفعل.

خيم الصمت المتوجس على ثلاثتهم، شعرت مريم بغصة في حلقها وهي ترى نظرات الشك في عين طارق، بينما تجاهلها السهم وانكب يحاول إصلاح الميقاته، بدأت الدموع تتجمع في عينيها وهي تقول بصوت متهدج: «أعرف أنكما لا تثقان بي، ولكني صدقًا لم أفعل شيئًا هذه المرة».

اقترب منها طارق ليبتسم لها مطمئنًا: «أثق بك».

لم تستطع أن تمنع ابتسامة الراحة التي ارتسمت على شفتيها، لكنها سرعان ما وأدتها على صوت السهم الذي قال بعصبية كبيرة:

- لا تستجيب لشيء...

رفع رأسها نحوهما مرة أخرى قائلًا: «يبدو أننا علقنا».

* * *

في قاعة فسيحة مزينة بالزخارف السلامية والنقوش الجميلة جلس العديد من المستشارين على طاولة الاجتماعات بعد أن انتهوا من صلاة الفجر، حيث موعد اجتماعهم اليومي مع الأمير عبد الرحمن بن الحكم للنظر في شئون البلاد، كانوا يتجاذبون أطراف الحديث عندما نادى الحارس معلنا قدوم الأمير.

توقف الجميع عن الهمس، ووقفوا احترامًا، ثم دخل عبد الرحمن في خطوات واسعة واثقة، تاركًا عباءته المزركشة تتدلى من على كتفيه، ألقى السلام ثم اتخذ مكانه على رأس الاجتماع مشيرًا إلى الحضور بالجلوس، وبعد أن حمد الله وصلى على الرسول الكريم بخشوع قال بنفس النبرة المتزنة:

- الحمد لله الذي رزقنا نصرًا مؤزرًا من غير حول منا ولا قوة.

اندفع الجميع يقولون خلفه:

- الحمد لله يا مولاي.

ثم أضاف أحدهم:

- كانت هذه المعركة هي الأقوى منذ توليتم الحكم يا مولاي، بفضل الله استطعنا تخليص العالم من شرهم لا أظن أن تقوم لهم قائمة مرة أخرى.

- نأمل ذلك، ولكن علينا أن نكون حذرين، ونستعد لأي هجوم مماثل.

- نعم يا سيدي، يجب ألا نقع في هذا الخطأ مرة أخرى.

- لقد عكفت ليلة أمس أراجع التقارير التي رفعتموها لي من أجل تقييم نقاط ضعفنا وسبب الهوان الذي رأيناه من جنودنا في بداية المعركة، ولقد خلصت إلى نقطتين؛ أولهما

أن أهلنا في إشبيلية لا بد وأن يشعروا بالأمان الذي انتزع منهم، لا بد أن يتم إنشاء سور ضخم قوي يحول المدينة إلى حصن يقف أمام أي هجوم مهما كانت قوته.

- بالتأكيد يا مولاي.

تنحنح عيسى بن شهيد ثم تحدث:

- كما أمرت يا سيدي، لقد بدأ المهندس عبد الله بن سنان في وضع الرسومات الهندسية اللازمة لإنشاء السور، وسيكون جاهزًا في خلال يومين إن شاء الله، وسنبدأ على الفور.

- أحسنت صنعًا.

قالها عبد الرحمن، ثم التفت إلى يمينه حيث يجلس ولده الحكم قائلًا:

- وأنت أيها الأمير، عليك توفير مواد البناء اللازمة من اليوم حتى يكون كل شيء معدًّا عند البدء.

- كما تأمر يا سيدي، سأنطلق بفرساني بعد الاجتماع مباشرة إن شاء الله.

- هذا عهدي بك دائمًا.

ثم نظر إلى الحضور قبل أن يضيف:

- الأمر الآخر الذي عانينا منه هو عدم امتلاك أسطول بحري، مما مكن الأعداء من مهاجمتنا من البحر بكل سهولة، آن الأوان ليكون لدينا أقوى أسطول بحري في البحار يخشاه القاصي قبل الداني.

- تحدث ولي العهد قائلًا:

- لدينا دار صناعة سفن في إشبيلية، ولكنها متهالكة من الممكن أن نعيد إحيائها.

- هذا بالضبط ما أفكر فيه يا محمد.

- ولكن بناء أسطول بهذه القوة مع بناء سور ضخم حول مدينة إشبيلية في توقيت واحد سيكلفنا الكثير من الأموال يا مولاي.

قالها أحد المستشارين بحذر، فرد عليه عبد الرحمن بهدوء:

- أتفهم مخاوفك يا سيد يحيي.

قالها ثم التفت إلى عيسى بن شهيد قائلًا:

- ما رأيك يا حاجب الدولة؟

- كلام السيد يحيى صحيح يا مولاي، ولكن أمن دولتنا يستحق أن ننفق من أجله كثير من الأموال، والحمد لله خزينة دولتنا عامرة.

وبعد أن أخذ رأي الحضور وافق الجميع على المقترح، فقال الأمير حاسمًا الأمر:

- حسنًا، سيوفر ولي العهد الأخشاب اللازمة لبناء أسطولين كبيرين أحدهما في البحر المتوسط، والآخر يجوب المحيط، وستشرف

بنفسك يا حاجب الدولة على بناء الأسطول، اختر من تشاء من المهندسين والمستشارين لمساعدتك، ولكن أبدأ على الفور.

* * *

وقف الأمير عبد الرحمن يمتطي جواده العربي الأصيل على تلة عالية شامخة يتنسم عبير الأندلس، رذاذ مياه البحر المنعش يداعب وجهه، يملأ رئتيه بالهواء، ويخرجهما بثقة وهو يرى بنظرته الثاقبة الأسطول البحري الضخم الذي تتهادى سفنه في البحر المتوسط، يلتحم في تشكيل حربي مبدع على شكل حربة إسلامية متينة ترفرف من فوق السفن الأشرعة التي تحمل شعار الأندلس، تمتزج أصواتها مع أصوات الرياح الهادرة، فتتراقص بكل عزة وفخر، مما جعله يتمتم بخشوع:

- ربي لما أنزلت إليَّ من خير فقير، هذا من فضلك علينا يا الله، فاللهم لك الحمد.

كان هذا الأسطول الحربي الذي ظل يؤرق نومه طوال الشهور الماضية، وهذا يوم انطلاقه ليحمى شواطئ الأندلس في البحر المتوسط، وسيشهد الأسبوع القادم الأسطول الآخر الذي سينطلق في المحيط ليحمي الأندلس من الجهة الأخرى، ظن الجميع أن الهدف

من بناء الأسطول هو حماية الحدود فقط، ولكن آمال عبد الرحمن كانت أوسع من هذا، فقد كان يطمح في استكمال الفتوحات السلامية في البحار، وهذا ما خطط له، قطع تفكيره صوت حاجبه عيسى بن شهيد الذي كان واقفًا على مقربة منه يتأمله في صمت:

– مولاي الأمير، لقد جاءت البشرى من القصر الآن، لقد وضعت مولاتي فتاة كما القمر منذ قليل.

تهللت أسارير عبد الرحمن بشدة، وضحك حتى بدت نواجذه، كأنه تلقى نبأ ولادة طفله الأول للتو، وهو يقول:

– ما شاء الله، ما شاء الله، الحمد لله، الذي أكرمنا بتلك الفتاة الجميلة في هذا اليوم المبارك، سأسميها عُلية لتعلو بها دائمًا أمتها.

– بارك الله فيها يا مولاي، إنني أتعجب دومًا من تلقيك نبأ ولادة أبنائك وكأنه الطفل الأول، رغم أن لديك ثمانية وثلاثون ولدًا وأربعون بنتًا.

– أتعلم يا عيسى، منذ أن أنعم الله على المسلمين بفتح الأندلس ودولتنا مرت بفترات عصيبة، وأنا أراها اليوم بفضل الله دولة قوية، وستزداد قوة بإذن الله، ولكن أي دولة لن تكون قوية إلا بفضل

أولادها المخلصين، وأنا أسأل الله أن يكثر من ذريتي ويعينني لتكون ذرية صالحة ينفع بها الله الإسلام والمسلمين إلى يوم الدين، لذلك يرقص قلبي فرحًا كلما رزقت أمتنا بوجه جديد، فالخير يأتي مع قدومه دومًا.

- بارك الله لنا فيك يا مولاي، وبارك لك في ذريتك، وجعلهم ذخرًا للإسلام والمسلمين.

- على ذكر الخير، ادع لي المستشارين والوزراء لاجتماع عاجل بعد فجر غدٍ إن شاء الله، لمناقشة خطة الفتوحات في الفترة القادمة، أما الآن فسأذهب إلى القصر لرؤية وجه الخير عُلية.

قالها وانطلق بفرسه الأدهم يشق طريقه كالسهم بقلب فارس في العشرين من عمره رغم أنه قد قارب الستين، ومن خلفه تبعه الحراس، يبذلون مجهودًا مضاعفًا للحاق به.

* * *

في السنوات التالية انطلق الجيش السلامي في الأندلس بقيادة محمد بن الحكم إلى مدينة ليون لحصارها وتضييق الخناق عليهم، وبالفعل نجح في حملته، وبعد اكتمال الأسطول أرسل عبد الرحمن الأوسط

قرابة ثلاثمائة سفينة ضخمة لفتح جزيرتي ميورقة ومنورقة، وذلك لنقضهم العهد الذي كان بينهم واعتراضهم سفن المسلمين في البحر والإغارة عليها، واستطاع أن يلحق بهم خسائر كبيرة في وقت قصير.

انهالت المعاهدات والهدايا والصداقات لكسب ود الأمير عبد الرحمن بن الحكم، وكان من عادة عبد الرحمن أن يحترم المعاهدات، ولكن ما إن وجد ظلمًا أو نقضًا إلا ذهب لتأديب ذاك المعتدي، وكلما أمر عبد الرحمن الأسطول الإسلامي في الخروج لغزوة جديدة يتذكر الشهداء في إشبيلية الذين كانوا سببًا في بناء ذلك الأسطول، ويحمد الله أن وفقه لذلك.

واستطاع عبد الرحمن بكثير من الحكمة أن يحافظ على معاهداته، بل ويساعد بعض الأصدقاء في التصدي لأعدائهم دون أن يمس هذا بالحضارة الداخلية من إنشاءات وعلوم ومرافق زاهرة جعلت الأندلس قبلة، يتمنى أي فرد في العالم أن يعيش في نعيمها أو أن يمس بالتجارة التي كانت عمود الاقتصاد الإسلامي للدولة في ذلك الوقت، وعاش الشعب الأندلسي في ترف ورغد من العيش في تلك الحقبة، حتى إن المؤرخين قد أطلقوا على عصر عبد الرحمن الأوسط أيام العرس.

واستمرت النهضة العلمية على أشدها، ورصد الأمير عبد الرحمن الكثير من ميزانية الدولة لطلاب العلم وعلماء الدولة، وكبرت مكتبة قرطبة حتى أصبحت بيتًا للعلم، لا يوجد منسوخ على وجه الأرض لا تحتوي على نسخة أو نسختين منه، وتلقى الأمير رسائل من بعض ملوك أوروبا يطلبون السماح لبعض طلابهم بالقدوم إلى الأندلس للتتلمذ على أيد علماء الأندلس.

وبعد إنشاء دور الصناعة فيها أصبح ميناء إشبيلية هو الميناء الحربي الأول في الأندلس، منه تنطلق السفن التي حرص عبد الرحمن على تزويدها بالرجال المدربين والآلات اللازمة والوقود لتصمد في البحر أسابيع وشهور، وقد كان ميلاد الأسطول الإسلامي وإنشاء دور الصناعة، تلك مقدمة لإنشاء دور صناعةٍ أخرى، رفعت من شأن الأندلس عاليًا في العهود القادمة.

* * *